المهاجر

قصة لاجئ في النكبة

جميع أحداث هذه القصة حقيقية وكذلك أسماء البلدات
والمناطق والأشخاص ووصف المواقع والتواريخ إلا
ما اقتضاه السياق من سيناريو وحوار جعلناه
في أضيق نطاق

الإهداء

إلى كل من هاجر من أرض المسرى بجسده فقط، ولم يهاجر عقله أو قلبه

واصف أبو عجمية

رصاص فوق الراس

يصحوا أحمد على صياح الديك فيهب من فراشه مسرعا، فاليوم هو يوم الجمعة، وهو عطلته المدرسية، ولن يذهب إلى مدرسته في القرية المجاورة، وكان أحمد قد اشترط على أخيه الأكبر داهود[1] أن يكون الرعي يوم الجمعة له، لا رغبة في الرعي، وإنما فيما وراءه من صيد العصافير، يأخذ الأبقار والأغنام بصحبة أقرانه من صبية القرية ويسرح بها إلى المراعي، وكانت نقطة البداية دائما من البدّ[2]

وكان أكثر اتجاه الصبية إلى الشرق حيث الخصوبة والوفرة في تلك البرية، وبينما تتنعم الأبقار والأغنام بكرم الطبيعة، كان الأولاد يتوجهون لصيد العصافير من أعشاشها أومن الآبار حيث ينزل أحدهم في البئر، ثم يغطي الباقون باب البئر بأغصان الشجر فتهرب العصافير لتجد باب البئر مغلقا فيصطادهن، وعندما يجمعون من الصيد ما يكفي يقومون بطبخه إذ يكون كل واحد منهم قد أحضر ما قدر على إحضاره من بيته، من البصل والملح والسمن والبندورة الطازجة أو المجففة، وكانوا يجدون في ذلك متعة لا تضاهيها متعة

وأما اذا لم يكن موسم صيد فيكون طعامهم فتة الحليب، فكانوا يجمعون الخبز، ويفتونه في (حوض الحليب) ثم يأتي من هو أكبر منهم سنا ليحلب على الفتة، ويتركونها ذاهبين لسقي الدواب، حتى إذا صدر الرعاء عادوا فكانت الفتة جاهزة للالتهام، وربما أضافوا فوقها السكر لو توفر

وأما إذا لم يكن موسم صيد ولا حلب يكون طعامهم البصل، أو القُطين[3] أو الجميد[4]، وكلٌ كانوا يجدونه لذيذا

قبل ذلك كانوا يوردون الدواب إلى بئر الحفاير للشرب، وكان يوجد على حواف البئر أحواض منحوتة من الصخر تسمى النُّقُر (جمع نقرة، أو نقير) فكانوا يملؤونها ماء لشرب الدواب وكان منها حوض يسمونه حوض الحليب لا تسقي منه الدواب هو مستقر الفتة

وبعد هذا يلهون بالألعاب، مثل الطمّة[5] أو الهُوّلوه[6] أو الحابة[7] أو الكورة[8] أو الوتد[9]، ويجمعون الأزهار والأعشاب، ثم يعودون من هذه المهمة الشاقة - الممتعة إلى قريتهم مغلس قد شبعت نفوسهم وأرواحهم من البرية والجبال والغابات والسهول

الحوش الشامي

وهل تظن أن فرط نشاطهم كان يقف هنا؟ وإلا فما هي فائدة: الحوش الشامي؟

---

[1] داهود= داوود، هكذا كانوا يلفظونها في بعض القرى الفلسطينية

[2] البدّ: مغارة واسعة مستطيلة يجعلونها حظيرة للدواب والحلال ويغلقون عليها ببوابة حديدية

[3] القُطَّين: التين المجفف

[4] الجميد: خثارة اللبن وهي جافة صلبة

[5] الطمة: الاستغماية، أو الغماية، أو: اختبئ وابحث

[6] الهولوه: قفز الأطفال فوق ظهور بعضهم بعضا في وضعية الركوع

[7] الحابة: قذف الأغصان الخشبية إلى أبعد مسافة ممكنة، وذلك بالنقر على طرفها بعصا خشبية أخرى حتى ترتفع في الهواء، ثم الضرب عليها بقوة وهي في الهواء بذات العصا لتندفع بعيدا، ويكون التباري في أيهم أبعد مقذفا وأصعب منالا، وكنا نسميها حابو-جيبو

[8] الكورة: كرة خشبية يضربونها بالمضارب، تشبه البولو ولكن من غير خيول

[9] غرز الوتد في الطين

كانت دار أحمد تتبع الحوش الشامي في شمالي القرية، وأمام الدار ساحة واسعة يقال لها الساحة الشامية، ولاتساع هذه الساحة فقد كانت ملتقى الصبية ومكان التجمع للألعاب، ما بين ألعاب نهارية، وأخرى ليلية

بعد الغروب يتجمع أبناء الأحياء الأخرى في الحَرَجة (وهي ساحة المدرسة بوسط القرية) وبعد أن يكتمل تجمعهم يتحركون باتجاه الحوش الشامي هاتفين:

"*ع الحوش الشامي - يلا*"

"*ع الحوش الشامي - يلا*"

وعندما يصلون يخرج أبناء الحوش الشامي، ويبدأ اللعب

ومن الألعاب الليلية، لعبة اسمها (قصين عظيم) وهي لعبة يستخدمون فيها قطعة عظم من خاروف أو غيره، تبدأ بإجراء قرعة فيمن يلقيها أولا، فيلقيها بأقصى طاقته في وسط العشب فينطلق اللاعبون في التفتيش عنها، وعندما يجدها أحدهم يهجم عليه الباقون ليخلصوها منه، ويحاول هذا جاهدا أن لا يفرط فيها حتى يصل إلى المكان الذي ألقيت منه، ويكون هو الذي يلقيها

أما الألعاب النهارية فهي بالإضافة إلى ألعاب البر كانت هناك ألعاب بالقلول والبكاك[10]، ثم ألعاب أكثر عنفا مثل المباطحة[11]

إلى أن يأتي يوم يختلف عن باقي الأيام قليلا

يعود الصبية من الرعي فيلاحظون مجموعات من البشر رجالا ونساء وأطفالا يتوافدون إلى القرية يحملون المتاع على الدواب أو فوق رؤوسهم أوفي أيديهم

- من هؤلاء يا خالتي؟ يسأل أحمد
- لاجئون من قريتي جِليا والمَغار، هاربون من العصابات الصهيونية التي احتلت أرضهم، سيقيمون عندنا في بيوتنا، فهم أهلنا، وسنتقاسم معهم البيت والطعام والشراب
- لقد سرق اليهود بيوتهم؟
- لا تقلق، لن يصل اليهود إلى هنا، فالدول العربية قادمه بجيوشها، وستطرد المحتلين قريبا إن شاء الله

يقف أحمد برهة يتأمل وجوه الوافدين، لقد بدا عليهم القلق والاضطراب أكثر مما بدا عليهما التعب، وكأنهم يقولون: هل من عوده؟

توزع الوافدون على بيوتات القرية، وقد نزل جمع منهم ضيوفا في بيته الكبير - بيت جده - وتقاسموا بالفعل مع أهل البيت طعامهم وشرابهم، وكلهم أمل أن لا يطول الأمر، وكان أحمد يرقب كل هذا والأسئلة تتقافز إلى ذهنه، فيسأل والده تارة، ويسأل خالاته أو أعمامه تارة أخرى

وفيما كان كثيرون قد انشغلوا باستقبال الوافدين الجدد كان آخرون يستعدون لشهر رمضان

فرمضان على الأبواب

ثم جاءهم الخبر الصاعق في الأول من رمضان الموافق 1948/7/7 فقد احتل اليهود بلدة تل للصافي المجاورة، والقريبة جدا من قريه مغلس

- تل الصافي؟
تلك التي فيها مدرستي؟ صاح أحمد

[10] القلول، أو البكاك، هي البلى الزجاجية
[11] المباطحة: المصارعة

نحن نروحها مشيا على الأقدام كل يوم

أنتشر الخبر سريعا كالنار في الهشيم، وانقلبت القرية كلها إلى هرج ومرج

يتنادى رجال القرية إلى الاجتماع عاجلا عند شجرة السدر الأكبر في القرية والمسماة سدره الجُرْن، والتي يتسع المكان تحت ظلها لاجتماع أكثر من أربعين شخصا

- ما العمل؟ اليهود باتوا على أبواب مغلس، وقد يدخلونها اليوم أو غدا، فماذا نحن فاعلون؟
- قد سمعتم ما حل بدير ياسين، لقد قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وبقروا بطون الحوامل

وقد كانت أصداء مذبحة دير ياسين قد أفزعت الناس، تلك التي وقعت في نيسان/ إبريل من عام النكبة، ودفعت الأهالي إلى الهجرة واللجوء

- لماذا اختار اليهود تل الصافي؟
- الأمر واضح، تل الصافي مرتفعة عن باقي القرى التي حولها
- صحيح، إنك تستطيع من وقوفك في مقام (الخضر) أن تشرف على أربعة عشرة قرية، هي مغلس، اذنبة، برقوسيا، زيتا، ذكرين، بعلين، رعنا، عجور، جليا، دير الذبان، تل الترمس، القسطينة، صميل، الخيمة
- لا يمكننا المكوث هنا أبدا، لسنا مسلحين ولا مؤهلين لمناهضة العصابات الصهيونية
- إلى أين؟
- إلى أم المُغُر في خربة عمورية، نأخذ النساء والأطفال، نستعصم بالجبل انتظارا لفرج الله

تحولت القرية فجأة إلى خليه نحل للتحرك الفوري إلى أم المُغُر[12]

- أحضر الدواب ...
- ارفعوا الأمتعة ...
- احزموا الفرش ...
- ادخلي المطبخ يا بنيتي وأحضري كذا وكذا
- اذهب إلى عمك فلان واستعجله
- تحرك، أخرج الأبقار من البدّ
- أين الأوراق الثبوتية
- ... إلى آخره

يرقب أحمد هذه المشاهد في ذهول، إلى أن صاح به والده المسن (أبو داهود):

- هيا يا أحمد، تحرك

ولم يكن النهار قد انتصف حتى سارت قافلة بشرية من مغلس نحو خربة عمورية، وإلى جبل أم المغر تحديدا، وفيما غادر اللاجئون الذين وفدوا من جليا والمغار إلى جهات لا يعلمها، تجمع الناس من فروع القرية عند النقطة الشمالية ليستحيل سيرهم معا خطا واحدا من البشر والركائب كأنه مسار من النمل

كانت الخربة قريبة جدا من القرية

تختار كل أسرة أو (عائلة ممتدة) غارا من هذه المغاور حسب سعتها

وعلى عجل: يرتب الناس أماكنهم في ارتباك واضح

كان أحمد وأخوه يتابعان توجيهات والدهم في تشابك مع تعليمات أعمامهم وأخوالهم الذين يبرزون من كل حدب وصوب

[12] المغر: جمع مغارة، أو غار، وأم المغر جبل في خربة عمورية بين عجور والبريج

وبعد أن يستقر الوضع على صورته الأولية، يتحلق الناس حول النار التي أضرمت بين المغاور، ويتحدث وجهاء القرية حول سبل التعامل مع هذه الأزمة

- أين فلان؟
- لقد خرج مع الشباب المقاتلين إلى تل الصافي
- ليس هو فقط، لقد ذهب كل من كان قادرا على حمل السلاح
- كم عددهم؟
- لا أعلم، ربما كانوا بضعة عشر شابا، بعضهم يملك بارودة[13] وبعضهم يتشارك مع الآخرين، وهناك غيرهم يحاولون شراء البوارید والانضمام إلى المجاهدين للدفاع عن تل الصافي أو الرباط في مغلس لصد الهجوم
- وماذا تنفع البارودة بعد أن تنفد منها الذخيرة، هل تصلح لغير وخز الفئران؟
- هنا المشكلة

كانت البنادق مرتفعة الثمن جدا، وقد يضطر الرجل إلى بيع بقره بأكملها لشراء بندقية، يوم كانت البقرة ثروة عائلة بأكملها، وفي حين كانت العصابات الصهيونية مسلحة تسليحا ممتازا، ومدربة تدريبا نظاميا على أعين الضباط الانكليز وعلى سواعدهم، كانت حيازة السلاح -في المقابل- محظورة على العرب، وكان الإنكليز يعاقبون كل من يخالف الحظر، وقد نفذوا هذه السياسة بقسوة بالغة، فقد كانوا يحكمون بالإعدام على كل من يضبطونه متلبسا بحيازة أي قطعة سلاح، أو أي ذخائر، بل ثبت أنهم أعدموا بعضا من عثروا بحوزتهم على الفشك[14]

وهناك حادثه مشهورة يتناولها أهل القرية في هذا الباب

المحاكمة

ذات ليلة جاء إلى القرية حرامية[15] يرتدون لباس البوليس (الشرطة) فسلبوا دار حسن عثمان كما دخلوا بيت أحمد يونس الذي كان متزوجا حديثا من ابنة عمه فسلبوا العروس[16] مصاغها وحليها وتبين أنهم من قرية عجور، عندها اجتمع رجال القرية من جميع العشائر واتفقوا على حراسة القرية، فأقاموا نقاطا للحراسة على عقد معينة من الحواف، ورتبوا عليها نوبات للحراسة، وكانت نوبة خاله: أحمد حسن شرق القرية لمراقبة الطريق القادمة من جهة عجور، وأثناء نوبته ليلا سمع جلبة ووقع أقدام أشخاص قادمين من جهة عجور، فسحب أقسام البندقية وصاح:

- قف... من هناك
- نحن بوليس

رمى أحمد حسن البندقية بين الصبر حيث كان كامنا

- أخرج من بين الصبر، وسلم السلاح

يخرج أحمد حسن

---

[13] البارودة: البندقية
[14] الفشك: أغلفة الرصاص الفارغة
[15] الحرامية: اللصوص
[16] العروس في العربية للرجل والمرأة، ولكنها تمايزت إلى عريس للشاب، وعروس للفتاة، والبعض يقول: المعرس

- أين البندقية؟
- لم يكن معي بندقية
- سمعناك سحبت الأقسام، يا شباب: ابحثوا عنها

فتش العسكر بين الصبر مستعينين باللوكسات[17] اليدوية فعثروا على البندقية

- إمش أمامنا إلى، سنفتش البيت أيضا

وعلى الطرف الآخر كان يحرس يوسف أحمد، فعلم بالخبر، فظنهم اللصوص، فحمل بندقيته وأسرع باتجاه دار حسن أحمد، وإذ هم بوليس حقيقي، عندها قذف البندقية على سطح مخزن تبن

أخذ الإنكليز أحمد حسن إلى مركز بيت جبريل وأحالوه إلى المحكمة المركزية في القدس لخطورة الموضوع عندهم، وانقسم الناس في أمرهم يتكهنون، من قائل بالإعدام، ومن قائل بالسجن المؤبد، فقامت العائلة بتوكيل المحامي أنور نسيبة[18] الذي نشط للمرافعة، ولكن الأمر كان صعبا، وطالت المحاكمة، وأخيرا نجح المحامي النبيه في إقناع القضاة يوم قال للمحكمة:

- هذه البندقية لأهالي مغلس كلهم -وأشار إلى حادثة اللصوص والمناوشات بين مغلس وبعض عائلات عجور- وقال: إن هذا الشخص كان يحرس نوبة معينة، ولو تقدم البوليس ساعة لوجدوا غيره، أو تأخروا ساعة لوجدوا غيره، فإن كنتم مصرّين فاحكموا على أهل القرية جميعهم

فاقتنعت المحكمة وأصدرت حكمها بالبراءة

وفي يوم النطق بالحكم تجمهر الناس أمام دار أحمد بانتظار حضوره مع أخيه محمد ولم يكونوا قد عرفوا نتيجة الحكم، كانت أنظار الجميع متجهه صوب الشمال، وكأنهم بانتظار قدوم الهادي، وفجأة ظهر محمد حسن وهو يلوح بالحطة[19] ويصيح بأعلى صوته:

براءة... براءة... براءة

وكان خلفه الطليق مع جمهرة من الصحب، وعندها اندفع شباب العائلة يركضون لملاقاتهم وساروا أمامهم يرقصون ويغنون حتى إذا وصلوا إلى داره خرجت أمه واحتضنته وقبلته، أما شباب القرية فقد عقدوا حلقات الدبكة يغنون أغان ذات مغزى فيها تعريض برجل معين كان قد غلب على ظنهم أنه الواشي

وهذه حادثة تدلل فقط، وإلا: فإن المستعمر كان يديم مداهمة القرى والبحث عن الثوار منذ أيام ثورة البراق وثور القسام والإضراب الكبير والعصيان الذي قام على إثر قرار التقسيم في العام 1947

داهم الانكليز هذه القرية الصغيرة أكثر من مرة، وللأسف يكون قوام الفرقة -على الدوام- من المتطوعون العرب (خونة) وعليهم مسؤول انكليزي

لقد تعاطف الناس مع ثوره 1936 ومع الإضراب الشامل، بل أن الناس من شدة كراهيتهم للإنكليز تعاطفوا مع ألمانيا بعد اشتعال الحرب الثانية، وكانوا يهتفون لألمانيا، ويغنون لها في الأعراس والدبكات، وأحيانا بدون مناسبة، قائلين:

هتلر يا هتلر أوعك تخاف رومل في الجبهة مشكك سلاح

واشفق يا هتلر على الستات

ويقصدون بالستات: فرنسا الرخوة التي سقطت بسهولة في يد الألمان

[17] مصابيح الإضاءة اليدوية
[18] صار أنور نسيبة وزيرا للتربية في إحدى الحكومات الأردنية
[19] الحطة: غطاء الرأس، مثل الغترة والشماغ

كان الفلاحون يهبطون من أم المغر يوميا إلى القرية رجالا ونساء لجني المحاصيل أو تفقد أحوال الدار، وعلْف الدواب، وكانت النساء تجهز الطابون والعجين وتغسل الثياب وتقوم على باقي أعمال البيت، ولكن لم يدم الأمر طويلا

حتى كان صباح اليوم العاشر من رمضان

احتلال مغلس

كان أحمد مع والده في بستان لهم يسمى (الجسر) قريبا من الدار وكان مزروعا زيتونا، وبين جذوع الزيتون المتباعدة كانوا يزرعون المقاثي، وبينما كان أحمد وأبوه منهمكان في جمع الناضج منها، وكان الوقت يقارب العاشرة صباحا، سمعا فجأة صوتا يصرخ يهرول مسرعا ويقول:

- اليهود وصلوا قلب الجورة
اليهود في الجورة
اليهود وصلوا قلب الجورة

كان الهاتف محمدا ابن عمه خليل، والذي وجه كلامه للأب:

- يا عم، أنت هنا؟ واليهود قادمون من جهة الجورة

والجورة قريبة جدا... وهي شمال القرية على طريق (قزازة)، فأسرع أبو داوود إلى البيت وتناول كيسا من الطحين فيه ما يقارب الثلث فحمله وخرجوا مسرعين من القرية

وما حتموا أن خرجوا من القرية -وكانوا قد تواروا بين الشعاب- حتى سمعوا صوت العيارات النارية، وكانوا من قبل يظنون أن قدوم جنود اليهود سيكون من الغرب حيث مستعمرة كفار مناحيم أو من الجنوب من مكمنهم في تل الصافي

سارع الناس بالهرب، لكن سيارات العصابات الصهيونية كانت قد دخلت القرية بالفعل، وباشرت في إطلاق الرصاص عليهم

تدافع الفلاحون للخروج شمالا في انفلات محموم هاربين من القتل

واعتلى بعض أفراد العصابات أسطح المنازل وبخاصة سطح المدرسة، وهو الأقرب إليهم، وشرعوا بإطلاق الرصاص فوق رؤوس الفارين

توقفت الدوريات اليهودية على مشارف القرية فيما أكمل الفارون طريقهم نحو أم المغر

وقف الناس على الجبل ينظرون إلى القرية واجمين مذهولين، كأن على رؤوسهم الطير

لقد وقع المحظور

لقد سقطت القرية وضاع كل شيء، وضاع الأمل

في لحظه واحدة انقلبت حياه هذا الفتى من عيشة هانئة في قرية وادعة، ثمارها طيبة، وماؤها زلال، وجوائها خلابة، ومرابعها ساحرة، إلى مستقبل مظلم مجهول لا يدري الواحد ما فيه، وما الذي يخبئه القدر، هل سنبقى في المغارة، أم سنرحل، وكيف، وإلى أين، وكم نطيق أن نحمل معنا من الزاد والمتاع

عاد الجميع إلى الكهوف

لم تكن الكهوف تكفي جميع سكان القرية، كما كانت سكنى المغاور غير صحية لما بها من الرطوبة، فلا منافذ ولا تهوية، فعمد الناس إلى أشجار الخروب، وهي أشجار معمرة ملتفة كثيفة وقاموا بتسييجها بأعمدة من أغصان ذات الشجرة حتى استحالت أكواخا صالحة للسكنى، وكانت هذه الخلوات ضرورية لقضاء الحاجات، ولتغيير الملابس، والاستحمام، وخاصة للنساء والفتيات

عاد أحمد إلى والده الذي كلفه أن يساعد ببعض المهام: من ترتيب الفرش للنوم ورفع بقايا الطعام ثم ملء ماء للشرب وتجهيز السراج الوحيد المتبقي لديهم

- أتريد أمرا آخر يا أبي؟
- لا يا أحمد، اذهب

خرج الصبي من الغار في نهاية يوم حار من صيف عام 1948 (والذي سيصير اسمه لاحقا: عام النكبة) يتجول بين المغارات المتناثرة في الجبل يرقب هذا وهذا من أبناء عمومته وأخواله وجيرانه فيلاحظ الناس في انشغالهم الممزوج بالقلق والحيرة مع الغضب

ثم يمم وجهه شطر جُرف في ناحية الجبل يشرف على السهل الذي تقع فيه قريته

لم تكن القرية بعيدة، ربما كانت المسافة لا تزيد عن اثنين من الكيلومترات، إنه يراها بوضوح

نظر نحو الغرب أولا يرقب الشمس تهبط نحو مستقر لها

ليست كل المغارب كبعضها، وشتان بين مغرب ومغرب، فهل غياب الشمس على كسير قلب كغيابها على محبور ينام على آمال هانئة؟

لم يطل تأمله لغياب الشمس فقد ولى وجهه شطر الجنوب الغربي حيث بدت معالم قريته تغيب مع الظلام

جلس على الأرض أحمد...

وأجهش في البكاء

أمن توقف أجـداد على طلل برسم بيت عفا من سالف الأجل

وقفت دهرا بآفاق مغيبة وقف الكسير على شط بلا أمل

ثار القريض بأبيات مضمخة دما ودمعا سرى من رائق المقل

بروي ثراه فيحيي فيه أحرفه والأرض مترعها بالوابل الهطل

لقد كان يحب قريته ويحب أبنائها، وسيبقى حبها يعتمل في قلبه حتى آخر أنفاسه، وسيخرج أثر هذا الشغف من مخبئه في كل مناسبة: في حديثه، ومجالسه، وأشعاره، وقد رزقه الله ذاكرة حديدية أهّلته أن يحفظ أسماء أبناء قريته واحدا عقب الآخر، وأن يحفظ بيوتات بلدته وأزقتها وحواريها وساحاتها، وسيكون هو الذي يرسم شجرة العائلة، ويرسم خارطة بيوت القرية في مهجره بعمان بعد هذه الواقعة بعقود، وسينظم فيها الأشعار ويصنف فيها كتابا

ربما كان أحمد قد اتم اثني عشر عاما، هو لا يعرف بالضبط تاريخ ميلاده، إلا أنهم -بعد ولادته بأعوام- سجلوا التاريخ بشهاده الولادة في 1936/1/1 كعادتهم عندما لا يفلحون في تحديد التاريخ، وقالوا أنه ولد على يد الداية[20] حليمة ابراهيم أبو بكر، وانتظر طويلا حتى أتى مطهر الأولاد من خارج القرية التي لم يكن بها مطهر ماهر

يفيق أحمد من سكرته على صوت أخيه داوود يدعوه، وكانت الشمس قد غربت، وغيبت بغروبها آفاق قريته

لاحظ القرويون في الأيام التالية للجلاء أن الدوريات اليهودية عادت إلى معسكراتها ولم تستقر فوق أرض القرية ولم تجلب مستوطنين إليها، لكن الدوريات كانت تتردد إلى القرية مرتين كل يوم في أوقات محددة (في الساعة 10.00 صباحة والساعة 4.00 عصرا) حتى صارت هذه المواقيت محفوظة لديهم، وكانوا اليهود يطلقون النار في الهواء تأكيدا على ملكيتهم للأرض، فيسمع أزيزها القرويون، ولأن المغارات لا يتوفر فيها الحد الأدنى من الماء والزاد فقد تجرأ بعض رجال القرية وشبابها على التسلل إلى البيوت في أوقات غياب الدوريات اليهودية، فكانوا يعودون إلى بيوتهم وحواكيرهم، يجمعون ما تبقى من مؤن، ويقطفون الخضار والقثاء، ويملؤون الماء، ثم يعودون إلى أم المغر قبل غروب الشمس

وكان أحمد ينزل معهم

وفي واحدة من المرات التي نزل عن الجبل وتوجه للقرية مع والده، اتجه أبوه إلى الحاكورة المسماة بالشامية لجني محصول التين، فيما زعم أحمد أنه متوجه إلى الحاكورة القبلية، ولم يكن يقصد إلا المدرسة، عله يجد فيها بعض الكتب، والمدرسة تقع في وسط البلدة، ولما وصل المدرسة وجدت أبوابها مفتوحة على مصراعيها، وخزانة الكتب مخلعة الجوانب، والكتب مبعثرة على الأرض، وفي أثناء بحثه عن بعض الكتب التي يريدها سمع صوت إطلاق رصاص، فخرج من المدرسة مسرعا مصوبا نظره جهة إطلاق الرصاص، فرأى مجموعة من اليهود راكبين الخيول قادمين من الغرب -من مستعمرة كفار مناحم على الأرجح-، وقد كانوا قد وصلوا أرض الشيخ داوود غرب القرية يتقدمهم شخص يرتدي قميصا بنصف كم، وبيده مسدس يطلق الرصاص

هرب أحمد مسرعا مختفيا في أزقه القرية الخالية فالتقى في طريقه بعلي ابن عمه خليل ثم بمحمد ابن عمه سعيد، وأسرعوا بالفرار من القرية قاصدين الحاكورة الشامية حيث ترك أباه، فلم يجده

- أبي ليس هنا
- وأنا لم أره في طريقي
- ولا أنا
- ربما عاد إلى المغارة
- اليهود يتقدمون نحونا
- أين المفر؟
- إلى مغارة القعدة

اجتاز الصبية حواجز الصبار وأسرعوا إلى مغاره (القعدة) وقبعوا فيها، ولكنه كان اختيارا غير موفق، إذ أن القعدة مرتفعة مكشوفة، خالية من الشجر، فهي مهملة منذ سبع سنوات لأن أصحابها عائلة أبو حديد كانوا قد جلو إثر قتلهم شابا من القرية

وصل اليهود قريبا وبدأ اطلاق النار وكان الصبية يشعرون بالرصاص يسقط على ظهر المغارة الصخري

[20] الداية: المرأة التي تقوم على توليد النساء، الولّادة

أصابهم رعب وهلع، وقبعوا هنالك صامتين، حتى إن الواحد منهم ليسمع أنفاس الآخر في هذا الصمت المطبق، كان علي أكبرهم سنا، يليه محمد وكان أحمد أصغرهم، طفق أحدهم يأتي بحركات مضحكة، فقال له الآخر:

- *هذا والله من الخوف يا ابن عم*

وكان الأمر كذلك فقد امتقعت وجوههم، كأنما غاض الدم إلى القعر

برهة، ثم توقف إطلاق النار فقال علي:

- لم يتوقف، وأنهم لقادمون
- اخرجوا

خرجوا من المغارة زحفا فوق الأشواك، حتى صاروا في وسط نبات الذرة ومنه إلى الوادي فنجوا جميعا، واستقبلهم الناس بلهفة:

- أنتم هنا؟ وبخير؟
- وصلتنا الأخبار أنكم صرتم في الأسرى
- ها نحن هنا، أمضينا وقتا في مغارة القعدة حتى ذهبوا
- الحمد لله
- ولكن أين أبي؟ (يسأل أحمد)، أما عاد من القرية؟
- لا، لم يعد (يرد داوود)
- يا إلهي، هل من الممكن أنه قتل أو أسر؟

لكن لم يلبثا إلا قليلا حتى أقبل الكهل حاملا سلة فيها تين وبندورة وفقوس

ومن الحوادث التي أثارت الأسى في نفسه، واختلط فيها الرعب مع الشجن حادثة وقعت يوم فاجأهم اليهود بقدوم مباغت، وبدأوا يطلقون النار من فوق ظهر المدرسة كعادتهم، كان أحمد وقتها في البيت ومعه -ويا للغرابة- أخته الصغيرة فاطمة، ولا يتذكر ما سبب وجودها معه في القرية، وكان أباه قد تركه قاصدا الأرض، فلما سمع صوت إطلاق الرصاص هرب بكل قوته مع أخته التي كانت صغيرة لا تقوى على الركض فحملها على كتفيه وقبض بقوه على يديها جيدا، وشرع يركض باتجاه الشرق، والتقي في طريقه بخلق كثيرين هاربين

ولكنه كان يحاذر (غياظة)، وهي أرض لهم على طريق البريج عيبها أنها أرض سهلية مكشوفة لا مخبأ فيها من الرصاص الذي كان يئز فوق الرؤوس

كان هلعا يخلع القلوب

نظر أحمد بجانبه، فشاهد عبد المهدي خضر يركض بشدة، وهو جار له تجاوز الـ 25 من عمره، ومعه أخته فكان أثناء الركض يلتفت خلفه ويحث أخته كي تسرع، وفي إحدى التفاتاته تعثر بحجر فوقع أرضا وظنت أخته أنه قد أصيب فصارت تصرخ وتولول، ولكنه نهض من فوره، فأسرعت نحوه وتعلقت بعنقه وهي تبكي

مرت الدقائق كأنها ساعات، إلى أن وصلوا إلى أرض منخفضة وتواروا عن أنظار اليهود وزال خطر الرصاص

وكان مما جرح أفئدة القرويين أن موسم جنى محصول الذرة البيضاء يضيع عليهم، وكان موسما من أخصب المواسم، بل زعم بعضهم أنه لم يشهد لها مثيلا، في حين أن السنة التي سبقته كانت محْلا مجدبة، وقد كانوا -من قبل- يستأجرون أناسا من الجبل من قرى بيت أَمَّر، وحلحول، وصوريف، وبيت كامل، ونوبة، وفاراس، وغيرها من قرى الجبل، بشرط النصف، وكانوا يجمعون المحصول في سلال من البوص فسلّ لصاحب الزرع وسلّ للعامل

وفي مساء ذلك اليوم، وحول حلقه النار في أم المغر أدرك رجال القرية ووجهائها أن أمل العودة إلى القرية يتلاشى

- لقد غدا الذهاب إلى القرية خطرا يا رجال

- بل إن مكثنا في الخربة لم يعد آمنا كذلك، ولن يطول بنا الأمر حتى نطلب الفرار
- نعم، إنهم يشددون على القادمين لجني محصول التين والخضار
- لقد قتلوا مصطفى أحمد، وعبد الرحمن اعطير
- وماذا بشأن عبد القادر خالد وولديه محمد وأحمد
- أخذوهم أسرى
- ليس هؤلاء فقط، لقد أسروا أيوب إسماعيل وحسن خليل أيضا
- إنهم يتعمدون الترهيب، لقد قتلوا رجلا من اذنبة اسمه عبد الفتاح ملحم بطريقة بشعة، فقد ضربوه بالبلطة على رأسه
- صحيح، رحمه الله، كان مصدر إزعاج لهم

يسمع أحمد الكلمة الأخيرة عن عبد الرحمن ملحم، ويعلم أنها حق، لقد شاهد بأم عينيه قحف الرأس المقطوع ملقى بين الأعشاب، وقد طافت به الدبابير

- لابد من نقل المؤن من القرية قبل قدوم العصابات الصهيونية
- إلى أين
- إلى عجور، هل من خيار آخر؟

في النهاية صدق حدس من قال أن المكث لن يطول، فقد وقعت معركة بين الفلسطينيين واليهود في منطقة الجواريش، وهي بلدة من جهة الرملة، واستشهد فيها أعداد من المجاهدين، كان أحمد يعرف منهم طه الحاج علي من زكريا، وهذا معناه أن الجبل أصبح محاطا بالمناطق المحتلة على شكل هلال، ولابد من الخروج

إلى عجور

اختارت كل مجموعة وجهة معينة ينقلون إليها المؤن: من حبوب وقمح وذرة، واختار معظم أفراد عشيرته نقل المؤن إلى عجور، فأن لهم بها رحما ونسبا، وهكذا سار الأمر، ينقل الناس المؤن في النهار من مغلس إلى عجور، ويبيتون ليلا في الكهوف والمغاور حتى أتموا نقل المؤن، ثم شرعوا في النزوح من الكهوف

في الأول من ذي الحجة تحرك الناس في قافلة جديده مشيا على الأقدام إلى عجور، وهذا معناه أن مدة إقامتهم في أم المغر كان ثلاثة أشهر قمرية بالضبط، منذ الأول من رمضان وحتى الأول ذي الحجة

والسؤال الآن: هل سيطول المكث في عجور؟

الجواب: لا

لم تكن إلا بضعة عشر يوما، ولم يكن أحد ليتوقع ذلك، بل إن والده توجه به إلى مدرسة عجور وسجله فيها ليكمل الصف السادس الابتدائي بعد أن انتهت العطلة الصيفية

- إنها مدرسة كبيرة يا أبي
- نعم
- لها سور يحيط بها وولها مدخل أيضا
- نعم
- فيها ملعب لكرة القدم
- نعم
- كان في مدرسة تل الصافي أربع غرف فقط، أما مدرسة عجور ففيها ما يزيد عن اثنتي عشرة غرفة

- نعم

أقام أحمد في المدرسة بضعة أيام فقط

وقبل استلام الكتب المدرسية، حل كان عيد الأضحى، وفي اليوم الثالث من العيد يوقظه والده بشدة

- قم، اهرب، اهرب، اليهود هجموا

خرج اللاجئون، واللاجئون من قبلهم، واللاجئون من بعدهم دون أن يحملوا متاعا، فقط فرارا بأنفسهم، في تزاحم هائل مرتبك كيوم الحشر

يؤرخ الناس اقتحام عجور في 1948/10/23 الموافق نهاية عيد الأضحى

إلى أين هذه المرة؟

يختار أبو داوود مع أخيه خليل غارا في خربة (سبيع) التي تطل على بلدة (بيت نتّيف) بينهما واد يقال له وادي (السمط) وفيه بئر تسمى بئر (الصفصاف)، وتتكرر قصة نقل المؤن والأغراض من مغلس إلى عجور، وهذه المرة من عجور إلى مدينة الخليل -عاصمة القضاء-

كان أحمد يرعى البقر مع ابن عمه عمر قرب وادي السمط، ويوما: جاء غلام من بيت نتيف ومعه جمل، فلما علم أنهم لاجئون وليسوا من أصل أهل المنطقة حاول أن يتنمر عليهم، فجعل يتحرش بهم مغايظا، فقال له أحمد:

(والله اذا صرت واصلك لأمرغ رأسك في الشوك، وهو شوك مرار)

فلما رأى الغلام أنه لا يقدر عليهما تركهما وسحب بعيره، ولكنه عاد في اليوم التالي ومعه ذات البعير، وانتظرهما حتى إذا أتيا بئر الصفصاف ونشلا الماء من البئر إلى الحوض لسقي الدواب ظهر فجأة وكان كامنا بين أشجار التين وأورد بعيره الحوض فشفط ما في الحوض من ماء، فأمسك أحمد بتلابيبه، وإذ بخمسة أو ستة غلمان أكبر منهم سنا يهجمون عليهما، وكانوا من قبل رابضين بين الأشجار، فوقع الاشتباك، وإذ برجل يطلع عليهم صارخا وبيده عصا، فهرب الغلمان ونجى الصبيان من علقة ساخنة، كان ذاك الرجل هو أبو حسن الذي كان راعيا عند أحد الفضلاء وكان يلتقي بهما أثناء رعي البقر

يروي أحمد القصة لأبيه، فيرد أبوه:

- لا يوجد مراع في هذه المنطقة، لقد غدت البهائم عبئا عليها، ولا بد من بيعها
- لماذا؟
- مدينه الخليل وقراها جبلية، وكلها بساتين خاصة وحواكير مسورة، ولا تتوفر فيها المراعي للبهائم، لا فائدة من إبقاء الدواب بحوزتنا
- متى ستبيعها يا أبي؟
- سنذهب غدا إلى سوق المدينة ونبيعها كلها
- والجمل؟
- نحتاجه لنقل المؤن من عجور إلى الخليل

يذهب أبو داوود وابنه البكر إلى الخليل ويبيعان الأبقار والأغنام، ومنها يذهبان إلى عجور لنقل المؤن على ظهر الجمل إلى الخليل

في اليوم السادس على إقامته في خربة سبيع يخرج الوالد مع ابنه داوود إلى عجور، فاليوم سيتم نقل آخر شحنة من المؤن إلى الخليل

ينزل أحمد نحو بئر الصفصاف ثم يرجع حاملا الماء إلى ابنة عمه عائشة التي كانت تعجن لهم الخبز في صحن من الفخار ثم تخبزه لهم في صينية الشاي لقلة ما بين أيديها من قدور وأوان

بعد الظهر: يعود أبو داوود وابنه إلى خربة سبيع

- لقد عدتم مبكرا اليوم يا أبي
- نعم
- ما هذا؟ أين الجمل يا ابي؟
- لقد مات (يرد داوود نيابة عن أبيه)
- كيف
- أصابه اليهود برصاصة في رأسه
- يا إلهي

يلاحظ الأب نظرات الأسف الحادة التي ارتسمت على وجه ابنه فيحاول أن يسرّي عنه، -والحق أنه أولى بالتسرية- قائلا:

- على أي حال يا أحمد كنا سنبيعه عاجلا أم آجلا، فحاله كحال الأبقار والأغنام، فلا مراعي هنا، كما أننا أكملنا نقل المؤن والحمد لله

احتلال بيت نتيف

أثناء مكثهم في مغارة سبيع هاجم اليهود قرية بيت نتيف بالمدفعية والرشاشات الثقيلة، ومن مكانهم في المغارة كانوا يرون الدخان يتصاعد بعد كل قذيفة

كان في بيت نتيف مقاومون من الإخوان المسلمين قادمين من مصر والأردن وفلسطين ومعهم بعض الجنود المصريين وكانت المقاومة شديدة، ولذلك استخدمت العصابات اليهودية المدفعية الثقيلة، وهنا برز سؤال: لماذا لم تقاوم عجور مثل هذه المقاومة؟ وهي أكبر من بيت نتيف بأربعة أضعاف، رغم أن عجور كان فيها أيضا عدد لا باس به من الجنود المصريين ومجاهدي الإخوان المسلمين

الجواب: إنها الخيانة

لقد كان القائد العام على هذه فرقة الجيش المصري في عجور ضابط يوغسلافي، وكان هذا اليوغسلافي يقول: إذا جاء اليهود إلى عجور ستكون مقبرة لهم، وكان يبث جنوده إلى مداخل عجور ويقبض على كل متسلل بحجة حماية القرية من اليهود، وقبل احتلال عجور بفترة أسبوع تغيب هذا اليوغوسلافي، وسرت شائعات بأنه أصيب وذهب للعلاج ولكن تبين أنه يهودي جاسوس، فغدا الجنود والمتطوعون فجأة بلا قائد يوجههم، وهكذا تمت مداهمة القرية من المحاور التي أفسحها للعصابات

في اليوم السابع على تواجدهم في مغارة دير سبيع يشاهد أحمد شاحنة عرف أنها قادمة من الخليل، أحضرها شخص من عائلة أبو شخيدم، كان أبوه وعمه قد اتفقا معه على إحضارها ليحملوا عليها أمتعتهم وأغراضهم ليتوجهوا بها إلى منطقة تسمى (دير عِركَّة) قرب وادي عزيز غربي مدينه الخليل، وهناك نزلوا في مغارتين قرب بيوت أبو شخيدم

يستيقظ أحمد وهو يشعر بشعور لم يعتد عليه

ما هو؟

أنه البرد.....

في هذه المنطقة الجبلية يلمس أحمد البرد الشديد لأول مرة

يصحو في الصباح مرتعشا

- الجو بارد
- هذا طبيعي، فقد اقترب موسم الشتاء، (يرد والده)
- الأرض عليها طبقة بيضاء لامعة وباردة جدا، ما هذا؟
- إنه حَليت...
- وما هو الحليت؟
- الجليد، طبقة ناعمة من الجليد، يبدأ ظهورها في بواكير شهر تشرين الثاني، ولأن الشتاء لا زال في أوله فإن حرارة الجو تتحسن بعد طلوع الشمس ويذوب الحليت
- لم نعهد هذا في القرية
- قريتنا شفا غورية، من قرى السفح المطل على السهل الساحلي، لا نعرف ثلجا ولا جليد ولا بردا
- والآتي أشد؟
- نعم، ولذلك سنرحل

مخيم العوجا

لا يذكر أحمد -على وجه الدقة- كم طال مكثهم في دير عركة، لكنه يقدره بحوالي شهرين، لأن الوقت قد حان إلى لجوء آخر

لم يستطيع بعض القرويين التكيف مع برد الخليل لذلك قرر أبو داوود وغيره الارتحال إلى أريحا، حيث الدفء، فقد سمعوا عن خيام يجهزنا الصليب الأحمر خصيصا للاجئين في مخيم العوجا قرب أريحا، والذي تبين لاحقا أنه مجرد بداية لمخيم لن يستكمل تجهيزاته، وفيما بقي بعض أعمامه في دير عركة، انطلق مع والده في شاحنة إلى أريحا

كانت الطريق إلى القدس مقطوعة لذا سلكوا طريق وادي النار، مرت بهم الشاحنة على بيت لحم، ثم بيت ساحور، ثم دير ابن عبيد، وهناك بعد الدير صادفوا نزولا خطرا وطريقا ضيقة، وصار الكل ينطق بالشهادتين

بعد عقود يروي لأولاده:

- كانت لحظات رأينا فيها الموت

وأخيرا وصلت الشاحنة إلى أريحا وتبين أن المخيمات مملوءة عن آخرها، فلا يوجد متسع في مخيم عقبة جبر، ولا في مخيم عين السلطان، ولا في مخيم النويعمة، وكانوا يرون الناس جالسين في العراء بالقرب من أمتعتهم

يا لها من تغريبة مؤلمة....

تابعوا المسير إلى مخيم العوجا

هناك لم يجدوا خياما

أنزلوا متاعهم في العراء

ثم رأوا خيمة كبيرة مكونة من أربع خيام مشتبكات مع بعضهن كانت تستعمل مسجدا، فنقلوا متاعهم اليها ونامت تلك الليلة أجساد قد هدها الكد والإرهاق، وفي الصباح فصلوا الخيام عن بعضها فسكن عمه خليل في خيمة وسكن عبد الرحمن رزق في خيمة وسكن صالح ومحمد خليل في خيمة بينما سكن أبو داوود وأحمد رزق في خيمة وجعلا بينهما حاجزا، مجرد بطانية تفصل نصف الخيمة عن نصفها الآخر

بعد مدة ارتحل عن المخيم جماعة من عرب السطرية وتركوا الخيام التي كانوا فيها فأخذ أبو داوود خيمة منهن فصارت مستقره

كان الصليب الأحمر يشرف على المخيمات، إذ لم تكن وكالة إغاثة اللاجئين قد أسست بعد، وكان الصليب يوزع معونات شهريا مقدارها اثنين كيلوغرام من الطحين للفرد (شهريا)، وطبعا لم ذلك ليكفيهم خمسة أيام، فكان أبو داوود يذهب إلى الخليل يحضر الطحين من مخزونهم هناك

أراد الوالد إيجاد مصدر فذهب إلى أريحا واشترى بعض الحلويات والنثريات، وأحضر لكل من لولديه أحمد وداوود (طبلية) وهي صندوق من الخشب له علّاقة من الجلد يضعه البائع في رقبته، ثم يضع فيه بضاعته ويسيح في شوارع المخيم ينادي عليها، ولكن الفقر كان مستشريا، والعوز مال الجميع، فلم يكن أحد يتناول شيئا يذكر، رغم أن ثمن السلعة لا يزيد عن قرش واحد، وفي بعض أحياء المخيم كان البدو يقتنون الكلاب، فكانت تهاجم الصبية فيهربون منها

ثم تخلوا عن هذه التجارة غير المفيدة، وهناك اهتدى ابن عمه أبو صلاح -وكان متزوجا- لفكرة بيع الترمس، فكان يذهب إلى أريحا فيشتري الترمس الناشف ويسلمه لزوجته أم صلاح، فكانت تنقع الترمس ليلة كاملة ثم تغليه في القدر حتى ينضج وتظل بعد ذلك تبدل عنه الماء عنه خمس مرات أو أكثر لتذهب مرارته

- لا زال فيه شيء من المرارة، (يقول أحمد)
- لقد بدلت أم صلاح الماء عنه اليوم خمس مرات
- طرأت لي فكرة، لم لا نستفيد من نهر العوجا؟
- كيف
- سأضع الترمس بعد أن ينضج في كيس من الخيش وألقيه في النهر حتى آخر النهار
- فلنجرب

ربط أحمد كيس الترمس المطبوخ بحبل، وربط الطرف الحبل الآخر بساق شجرة، وتركه نهارا كاملا، فلما أخرجه وذاق الترمس وجده حلوا لذيذ المذاق

- لذيذ، وكأنه الفستق
- هذا سينجح

صار بعدها يضع الترمس في صحن من النحاس ويدور يبيع في شوارع المخيم، وبعد العصر يجلس يبيعه أمام المقهى الذي كان في خيمة كبيرة، وكان رواد المقهى يلعبون الشدة، وكان على المغلوب أن يدفع ثمن الشاي أو يشتري لهم الترمس، ولما رأى صاحب المقهى ذلك أراد منعه من الجلوس، لكنه أصر على مكانه، وسانده بعض رواد المقهى

البحر الميت

قرر مجموعة من المتطوعين الاهتمام بالأطفال في مخيم العوجا، فنظموا لهم أنشطة دراسية وترفيهية، وكان منها رحلة إلى البحر الميت بتكلفة مقدارها خمسة قروش، كان الأولاد يسمعون عن البحر الميت ولم يكونوا يحسبونه بهذا القرب بل كان يخيل إليهم أنه في أوروبا أو الصين

والآن المعضلة الكبرى: من أين نأتي بالقروش الخمسة؟ وهو مبلغ كبير يساوي أجرة عامل في يوم كامل

المهم أن أحمد تدبر أمره، وحصل على المبلغ بعد عناء، فانطلق باص المتطوعين ومعهم الطلاب إلى البحر الميت، يتوقف الباص قبل البحر بقليل أمام مستعمرة يهودية مهجورة وكانت بناياتها بلا أسقف، وهناك الكثير من المعلبات الفارغة ملقاة في البنايات، خلع الصبي قميصه، وربط قبته، وشرع يجمع المعلبات كمن يجمع تحفا

ثم توجهوا إلى البحر، وكانت الأعشاب على الشاطئ عالية تكاد تصل ارتفاع الصدر، وفجأة سمع زملاءه يتصايحون:

- حية، حية

وإذ بشيء ضخم يشبه الأفعى، ولكن هذه لها أرجل (والأفاعي ليس لها أرجل)

فر الحيوان مذعورا من الصبية

- إلحقوا بها
- إنها تجري نحو البحر

مع الفرار، يدخل الحيوان الهارب إلى البحر، وبعد ثوان تسكن حركته

- اسحبها من ذيلها

يسحب الصبية الحيوان من الماء، وتبين أنها سحلية كبيرة (عظاية)

- إنها ميتة
- طبعا ستموت، (يقول أحد الكبار)، وهل من كائن يبقى حيا في البحر الميت؟ لماذا سمي بالميت إذا؟

نزع الصبية ملابسهم كما ولدتهم أمهاتهم ونزلوا في البحر يسبحون

لم يكن أحمد يحسن السباحة، ولكن الماء حمله، فإذ به يطفو على الماء بدون أي جهد[21] فاستهواه هذا الأمر وجعل يسبح حتى ابتعد في البحر مع صبي آخر أسود اللون اسمه زايد، لم يشعر بمرور الوقت حتى سمع الصفارة، وأحد المتطوعين ينادي عليهما، فلما عاد مع زميله وزايد وجد الأولاد قد اغتسلوا في ماء عذب فلم يدركا ذلك، لبس بنطلونه فقط، وبقي القميص محتفظا بالمعلبات، ثم تحرك الباص، وبعد فترة قصيرة شعر بالاختناق، فقد سد الملح مسام الجلد وأخذ العرق يسيل من أنحاء جسمه، فصرخ:

- أنا اختنق، أغيثوني

فقام أحد الكبار ويدعى (شاكرا) فأوقفه على باب الباص، وأمسك بالعمود فارتاح قليلا مع هبوب الهواء، وأوصى شاكر السائق أن يقف عند أول قناة للمياه، وفعلا توقف السائق عند أحد القنوات، ونزل فغسل جسمه العلوي

- يا الله: لقد ارتحت

ولما وصلوا إلى العوجا وكان بها نهر غزير رمى نفسه بملابسه، وأحسن الاغتسال، ثم عاد إلى الخيمة يقطر ماء

بضعة أشهر أخرى في مخيم العوجا سيقضون فيها فصل الشتاء كاملا حتى قدوم موسم الربيع

موسم ظهور العقارب

كانت العقارب جزءا من ذاكرة أحمد في مخيم العوجا

الأرض تمتلئ بالثقوب، وكان قدر الله أن يلدغ أحد هذه العقارب امرأة اسمها فتحية الشريف لدغة تامة متمكنة أدت إلى وفاتها

لكن الأطفال والفتية لا يعجزهم شيء، وهم جاهزون لقبول التحدي، فقد تعلموا كيفيه استخراج العقارب من جحورها والقضاء عليها

مثل أن يقوم واحد بأنزال خيط صوفي بالثقب، فيخرج العقرب متعلقا به، أو يقوم آخر بسكب الماء في الثقب ليخرج العقرب مولولا، وكان ممثل الصليب الأحمر يجمع منهم العقارب، ويعطيهم في مقابلها ألعابا وهدايا

[21] يسهل الطفو في البحر الميت بسبب كثافته العالية الناتجة عن شدة الملوحة

مخيم العروب

والآن يستعد الجميع إلى النزوح الخامس والأخير إلى مخيم دائم -مخيم العَرّوب- فقد قرر الصليب الأحمر إغلاق مخيم العوجا

بعد النكبة: أقام الصليب الأحمر مخيمات للاجئين الفلسطينيين، وكان منها (مخيم العروب) الذي أقيم بين الخليل وبيت لحم وانتقل إليه جمع كبير من اللاجئين، كان من ضمنهم أبو داوود وأبناؤه الثلاثة وإخوانه وأبناء عمومته، وأبناء خؤولته، وآخرون من مغلس ومن قرى أخرى

خيام على مد البصر، لا تكاد تقي قاطنيها حر الصيف ولا برد الشتاء، الكل مهموم مكلوم يندب حظه وحياته، والكل يعاني شظف العيش

في مسقط رأسه: كان أحمد يعود إلى بيته بعد يوم طويل يقضيه في اللعب والجري ما بين أزقه البيوت والحواكير والبساتين أو في سهول المراعي والغابات والمغاور المجاورة، ثم يعود آخر النهار ليجد العشاء اللذيذ

بيض، وجبنة، وزيت، وزيتون، وزعتر، ومربيات، وفواكه، وخضار، مع خبز الطابون الحار اللذيذ الذي لا عدل له إلا في الجنة، وماء بارد زلال من الزير[22] بالتبريد الطبيعي

لكنه يقف اليوم في مخيم اللاجئين على الطابور ينتظر دوره ليستلم حصته من المساعدات التي قررها الصليب الاحمر (كيلوغرامان من الطحين فقط)

فأين هذا الزمان من ذاك الزمان؟

[22] الزير: وعاء للماء يصنع من الفخار وقد يتسع لخمسين لترا

في العروب: سيتعرف على الكثير من الخلق من قرى شتى، وسيسمع قصصا شتى، كل يروي حكايته ومأساته

حل فصل الشتاء على مخيم العروب، وكانت خيامهم في أرض طينية، وبدأ الثلج يهطل بغزارة بدون انقطاع ليلا ونهارا، يدخل الماء إلى خيمتهم من الأسفل بكثرة، وتجري من تحتها الأنهار، لكنها أنهار من ماء بارد قارس مؤلم

- أرض الخيمة صار بركة متحركة من الماء
- حاولنا توجيه الماء من خارج الخيمة، ولكن هيهات، نحن في وسط مستنقع كبير
- ينبغي رفع الفرش إلى أعلى
- كيف
- نضع النتش، والبساط فوقة

عمد الرجال إلى نبات النتش (ويسمى أيضا: البلان) فوضعوه على أرض الخيمة المبتلة وفرشوا البساط فوقه، ثم وضعوا فرشات النوم فوق البساط، واستمر الماء يجري تحتها

وفي صباح أحد الأيام تنهار الخيمة فوق قاطنيها من الجوانب الأربعة، لم يستطع أحد أن ينهض من مكانه، وجعلوا يستغيثون، فهرع إليهم جيرانهم

- أخرجونا من هنا
- الثلج يغطي الجوانب كلها

شرع الرجال يجرفون الثلج عن أذيال الخيمة بهمة، وبعد جهد رفعوا الخيمة وأخرجوا من كان تحتها

- لقد انهارت الخيمة بعد أن جرف الماء التراب والطين من تحت الأعمدة
- لقد ساخت الأرض الطينية
- الأجواء قاسية، لا بد من العمل بسرعة على إصلاح الأرض
- نحتاج كمية من الحجارة الكبيرة لتثبيت الأرض تحت الأوتاد

وتم ذلك

توقف هطول الثلج

نظر أحمد في الأفق، كانت الأرض بيضاء مغطاة بالثلج، والسماء بيضاء، وحيثما نظرت لا تجد إلا البياض، ولهذا لم يكن الثلج يثير ذكريات محببة لدى أحمد بل كان -نتيجة هذه المعاناة- إذا نظر إلى الغرب فلمح غيوما كثيفة ينزعج ويطير صوابه خوفا أن تتكرر الواقعة، لكنها كانت في الواقع حالة استثنائية، حتى إن الثلج هطل في أريحا وهو في قلب الأغوار

نتيجة لما حصل في الخيام من جراء الأمطار والثلوج قررت إدارة المخيم نقل الخيام كلها إلى الجبل المقابل الذي يسميه أهل المنطقة جبل أبو سودة، وفي الموقع الجديد أخذوا منهم الخيمة ذات الأعمدة الثلاثة، وسلموهم خيمة ذات عمود واحد يطلق عليها: زعموط

أدرك الناس أن الحرب قد توقفت، فيقوم الصليب الأحمر بإنشاء مدرسة في ساحة من ساحات المخيم، فيقرر أبو داوود أن يرسل ولده إلى المدرسة ليتم الصف السادس، وذلك بعد انقطاعه عاما دراسيا كاملا[23]

ولكن: أين أم داوود من كل هذه الأحداث

[23] كان مدير المدرسة عبد الله أحمد سرحان من تينه، ومن المدرسين الذين عقدوا فصولا: شاكر عليان من عجور، وعبد الفتاح سويلم من عراق المنشية، وعبد الهادي مشعل من زكريا، ومحمد شتات، ومحمد خالد، ومحمد الراعي، وكان فيها أيضا الشاعر خليل زقطان من زكريا مدرسا لمادة الأدب العربي

نشأ أحمد يتيم الأم، وقد كانت أمه مريم هي الزوجة الثالثة لأبيه، كانت شابة يافعة يوم تزوجها، فيما كان هو قد جاوز الستين من عمره، وذلك بعدما توفيت له زوجتان قبلها، ولم يرزق من أي منهما بالذرية

أنجبت له مريم كل أبنائه: داوود، ثم أحمد، ثم محمد الذي قضى طفلا قبل أن يمشي على قدميه، ثم فاطمة، وكان قدر الله أن يفقد الكهل زوجته الثالثة أيضا في عام 1945 وهي في ريعان شبابها ولمّا تفطم ابنتها

وبوفاتها: وقف الشيخ حائرا أمام أطفاله، وكان لانقطاعه عن الأرض الطيبة التي تجود دوما بالخيرات، مع تقدمه في السن أثرا شديدا عليه، ثلاثة أثافي قصمت ظهره، ولم يعد قادرا على تأمين لقمه العيش لأبنائه، وبخاصة مع نفاد مخزونه من المؤن في الخليل

وأما المال، فقد نفد ما كان معه من النقود القليلة، فإن مرض الأم ومصاريف الأطباء والمستشفيات طيلة سنوات ثلاث لم يبق معه إلا القليل، حتى اضطر إلى بيع الصوف الذي كان في الفرشات واللحف والوسائد واستبدله بالقطن، وكان عنده بساط من الصوف منسوج باليد لو بقي إلى اليوم لعد من التراث ولم يقدر بثمن، وقد باعه، كما باع الأساور والحلي الفضية التي كانت لزوجته

يعود أبو داوود يوما إلى الخيمة وقد بدا أن الهم قد تضاعف عليه، وجلس واجما في زاوية، فجاءه ولده يسائله:

- ما الأمر يا أبي؟
- لقد سرقوه
- ما هو؟
- الجُزدان[24]

نشله مني نشال في سوق الخليل، وفيه المال وشهادات الميلاد والكوشان[25] والأوراق الثبوتية

لو يعلم هذا النشال أنه بعمله هذا أضاع آخر وثيقة تربط هذا الرجل بأرضه وتثبت ملكيته لها

فران، وعامل بناء

ولكن كان من فضل الله عليه أن وجد مصدر رزق بسيط جاءه عن طريق ولده داوود، فقد عمل داوود مساعدا لفرّان في مخبز صغير يملكه أحد اللاجئين حتى أتقن صناعة الخبز، ثم اضطر هذا اللاجئ الى ترك المخيم، فأشار داوود على أبيه بشراء الفرن، اشتراه بمبلغ ستة دنانير، ولم يكن يملكها، فاستدانها

أما أحمد فقد اضطر إلى ترك المدرسة بعد أن أتم الصف السادس للمساهمة في الإعالة، فصار يشتغل عامل بناء يتنقل بين المشاريع التي تعهد بها الحكومة إلى المقاولين في أواسط القرن العشرين، وأكثرها مشاريع في رصف الطرق بين المدن الرئيسية التي كان أغلبها طرقا ترابية، وكان إذا عاد إلى المخيم يساعد أخاه في عمل الخبز، ويسهران بعد العشاء في أحد أطراف المخيم

يقص أحمد على أخيه قصص العمل في ورشات الطرق، والتحريج، والرصف

- سأغادر غدا للعمل في طريق عمان – سحاب، والبداية من منطقة تسمى أبو علندا، هم يقولون أن غار أهل الكهف المذكور بالقرآن موجود هناك
- وهل انتهى العمل في الطريق السابقة بالكامل؟
- تقصد طرق ماحص- الفحيص، وطريق صويلح- السلط؟
- نعم
- أجل، وعملت قبلها في طريق الموجب – الكرك
- وقبلها؟

[24] الجُزدان: حافظة الأموال والأوراق الثبوتية
[25] الكوشان، أو القوشان: سند تسجيل ملكية الأرض

- في طريق العارضة، وفي توسعة حراج جبل أبو سودة
- أصبحت خبيرا في طرق الأردن
- مكره أخوك لا بطل

ويقص داوود قصص المخبز

- نحن نحتاج الحطب وقودا للفرن، وأكثر حطبنا من النتش، ولذلك صار النتش مصدر رزق لبعض بنات المخيم
- البنات يجمعن الحطب ويحزمنه، ويحملنه إليك
- كل حزمة بأربعة قروش
- ما عدا واحدة
- نعم، بنت واحدة تأتي دائما بحزمة كبيرة، نأخذها منها بخمسة قروش

وبينما هما كذلك ينتبهان على حريق في إحدى الخيم، ومعه صوت جلبة

- انظر، حريق
- إنها جهة خيمتنا
- الله يستر

يقفز الشابان نحو جهة الحريق

- يا إلهي، إنها خيمتنا فعلا
- أبي وأختي كانا في الخيمة

يصلا المكان، ويحمدا الله أن أباهما وأختهما كانا بخير، فقد انتبه الكهل وأخرج ابنته قبل ان تتشبث النار بملابسهما

استحالت الخيمة رمادا، لقد التهمتها ألسنة النار بسرعة بسبب الشمع الذي كانت تطلى به الخيم، والذي تم بتوجيه إدارة المخيم حتى لا ينفذ ماء المطر من خلال قماش الخيمة (الشادر)

مغلس

قريه فلسطينية بارعة الجمال، تقع جغرافيا في منتصف فلسطين تماما، تتبع قضاء[26] الخليل في أقصى الطرف الغربي منه على تقاطع أربعة أقضية: القدس والخليل والرملة وغزة، كانت تابعه لقضاء الرملة قبل العام 1940 وتحولت بعدها إلى قضاء الخليل، ولهذا فأن شهاده ميلاد أحمد كانت صادرة من الرملة

سقطت القرية في أيدي العصابات الصهيونية في العاشر من رمضان من عام النكبة 1948 وقام اليهود لاحقا بتجريفها تماما ولم يبق من بيوتها أي أثر، وأقيم فوقها مستعمره غيفين، ولو أتيح لك الفرصة لشاهدت في غيفين أشجار زيتون هرمة، من يدري في أي بيت من بيوت المغلسيين كانت

يقال أن اسمها مأخوذ من الغلس (وهو وقت آخر النهار) إذ أن جيش عمرو ابن العاص أغلس وبات فيها في مسيره نحو أرض الكنانة، وقيل: بل سميت على اسم الفقيه: عبد الرحمن ابن المغلس، وقيل: بل لوجود كنيسة المخلص القديمة فيها والتي اندثرت

قريه من قرى العرقوب (وهو السفح الذي يصل جبال الشرق بالسهل الساحل الفلسطيني امتدادا إلى البحر الابيض المتوسط)

كانت القرية تقع على ظهرة[27] يحيطها وديان محلية[28] ، كان أهمها وادي البير، وفيه بئر العلم أو بئر العلمين، وهي بئر القرية الرئيسية التي كان ماؤها مشهورا بالعلاج من حصر البول، وذاع صيته في المناطق المجاورة، وكانت مزارا للمستشفين من حصر البول

وكان أهم القرى المحيطة بهذه القرية[29]: سجد وتينة من الشمال

قزازة وجليا ومن الغرب

اذنبة من الجنوب الغربي

تل الصافي من الجنوب الشرقي

عجور وزكريا والبريج من الشرق

وكان بالقرب منها قُبانية كفار مناخم (أو كوبانية كفار مناحيم، والقبانية هي المستعمرة اليهودية) التي أقيمت على أراضي اذنبة، وكان فيها عيادة تعالج المرضى، وكانت الإشاعات تحوم حول وجود مستودع للأسلحة في داخل العيادة

[26] القضاء: المحافظة، أو المنطقة الإدارية

[27] الظهرة: التلة المرتفعة عما حولها

[28] أهمها: وادي البير، ووادي الحفاير، ووادي المناخ، ووادي أبو علي، ووادي أم صهريج

[29] كان يسكن القرية عشيرة أبو عجمية، وعشيرة المغالسة، وعشيره الشرفاء أو دار الشريف، وبعض العائلات الصغيرة من الصرابطة والجبالي وأبو نهار وأبو عيد، وكان للقرية مختاران: الأول يكون دائما من عشيرة أبو عجمية كونها الأكثر عددا والثاني يكون بالتناوب بين دار المغالسة ودار الشريف، ووقت وقوع النكبة كان المختاران هما: خليل أحمد أبو عجمية وحسين محمود حماد، وعشيرة أبو عجمية فرع من أبو طربوش من الدعاجنة وقد وقع دم هناك بين هذا الفرع وبين جمع من أهل دورا الخليل فارتحل على إثرها الجد حرب أبو طربوش إلى مغلس بحلاله من الأنعام واستقر فيها وأولاده، وكان لا يستغني عن سلاحه المثبت إلى جنبه، وهي حربة عجمية، ومن هنا كان الاسم: أبو العجمية، وكان أحمد من هذه العشيرة

الأعرج

لم يكن في القرية أو حولها أي طرق معبدة، وكان أقرب طريق معبد يبدأ من عجور ذهابا إلى بيت جبريل، ولم يكن أحد من أهل القرية يمتلك سيارة أو شاحنة أو تراكتورا زراعيا، وإنما عربات تجرها البغال، ولذلك كان قدوم سيارة للقرية حدثا استثنائيا يتدافع الناس لرؤيته، وبخاصة الأطفال

يصل تاجر العسل (متري صوصو) قادما من الرملة إلى مغلس لشراء العسل والشمع بسيارته البيك أب، يتراكض الصبية حول سيارة متري ويتقافزون حوله يرجون أن يحملهم على ظهر البك أب في جولة حول القرية كعادته

يتمنع متري متدللا، ثم يقول بابتسامة صفراء

- أمري لله، اركبوا

يسمع بقية الصبية بقدوم السيارة فيتوجهون نحو السيارة قافزين فوق الحواجز الحجرية الفاصلة بين المزارع مختصرين الطريق

يركض أحمد ليدرك الحفل، ويحاول أن يجتاز السنسلة[30]

يتقدم أحد الشباب الأكبر سنا ويحمله بين ذراعيه لينزله عن ظهر السلسلة، ولكن حدث ما لم يتوقعه أحد: تهتز السلسلة وتنهار فوق الطفلين، فأما الكبير فلم يصب بشيء، وأما أحمد فانطلق يصيح من الألم

لقد كسرت قدمه

لا يتذكر أحمد كل تفاصيل الحادثة فقد كان صغيرا، في سن الثالثة أو الرابعة، ولكن ما روي له عنها أن العبد سالم (عبد العزيز محمود سالم) قام بتجبير الكسر

تمت العملية، ولكن الألم كان يزداد، والانتفاخ يزداد، وصادف أن لاحظ ذلك الحاج عثمان مسلّم من عجور، فكشف عن الجبيرة وعلم من فوره أن هناك كسرا آخر

فكان التجبير الثاني

ويبدو أن الكسر كان شديدا إذ بقي الفتى مدة وهو يعرج بسببه، وبه سمي: الأعرج

لم تكن هذه المرة الوحيدة التي احتاج فيها أحمد إلى العلاج، ففي طفولته المبكرة ولم يكد يبلغ من العمر ستة أشهر ظهر ورم شديد في رقبته، وأخذ يتوسع وينتفخ حتى صار مثل الجراب، وكان لا بد له من زياره المستشفى في يافا، ولكن هيهات، فقد كانت هذه أشد أيام الإضراب الفلسطيني الكبير، وكانت كل الطرق والمواصلات مغلقة

ولكن الورم يزداد، فما العمل؟

لابد من اللجوء إلى حلاق القرية

في تلك الأيام كان الحلاق هو الطبيب والمجبّر في القرى الصغيرة، وكانوا بالأساس يتدربون على البهائم، وكان أكثر ما يفعله حلاقو القرى هو ربط الجروح، وخلع الأسنان الملتهبة، والحجامة بكاسات الهوا والفصد، ثم التجبير، وكان في القرية يومها حلاقان: الأول علي عبد ربه سمارة، والثاني عبد العزيز عبد الهادي المغالسة

في ذات يوم يسأل علي عبد ربه أبا داوود قائلا:

- كيف الولد يا خال؟
- فأجابه أبو داوود متألما: "*الولد بيموت، ومش طالع بيدي شيء*"
- فقال: أحضره إلي لأراه

[30] السنسلة: السلسلة، وهي السور الحجري المرصوف الذي يقام جدارا للبستان

يحضر أبو داوود طفله إلى الحلاق

- أرى أن نفصد هذا الورم يا خال، تماما كما نفعل بالحجامة
- يا بني، إن الرقبة مجمع للشرايين والأوردة، وأخشى عليه أن يموت
- يا خال، إن بقي على هذه الحال سيموت حتما، وأما إن فصدت الورم، فيوجد احتمال للشفاء
- توكل على الله

يفتح الحلاق الدمل الكبير، وينظف المكان من الصديد، ويمسح الجرح الذي امتد على مساحة واسعة من الرقبة، ويكتب الله الشفاء على يديه، وستبقى آثار هذه الملحمة بادية على رقبته طوال حياته

البيت

بيت العائلة الممتد

بيت جده

بيت كبير مربع الشكل، له بوابة كبيرة تدخل منها الجمال والأبقار، وكان هذا قبل أن تكثر البهائم وتضاف إلى البدّ

هذه السقيفة للجدة، وهذه دار والده أبي داوود، وهذه دار عمه مصطفى، تليها دار عمه خليل، هنا مخزن الحطب الذي يزود الجميع، ولكل دار مستودع أو مخزن، وفي كل بيت خوابي (أهراءات) لتخزين الحبوب

جدران البيت من الطين والحجر، والأسقف محمولة على دوامر حديدية[31] فوقها الخشب والبوص، ثم الطين المصبوب، وكانت البيوت متلاصقة، يقفز الأولاد من سطح إلى سطح

واليوم

هو يوم قروي جديد قبل النكبة ببضع سنوات، يوم كله عمل، وكله متعة

تنادي أم داوود على ابنها وهي ذاهبة إلى الطابون[32] وكان امرأة شِلْشة[33]

- أحمد
- نعم
- اذهب وأحضر الزّبل وتعال

كان لكل بيت طابون للخبز، وكان الوقود للطابون هو الزبل (روث البهائم) أو القصل (القش، وهو أخشن من التبن لوجود العقد الموجودة في الساق وتكون السنبلة في رأسه فلا تأكله الدواب) أو العرموط (قشر الذرة)، وكله من بقايا الحصيدة

وكان ينبغي تجفيف الزبل، فكان ينشر في الشمس تحت الهواء حتى يجف ثم يخزن في الطابون، إذ كان الطابون من قسمين: مخزن وموقد، كما كانت هذه الأنواع وقود المفاحم (التول) الذي يجب أن يكون مكمورا[34] وإلا استحال الفحم إلى سكن[35]

والخبز المعتاد هو ما كان من مخلوطا من دقيق الذرة والقمح، وأما عجين القمح الخالص فكان للمناسبات فقط

---

31 الدامر: الجسر الحديدي المستخدم في الإنشاءات
32 الطابون: الطابون: فرن الخبيز المصنوع من الحجر والطين
33 امرأة شلشة: نشيطة، سريعة الحركة، ذات همة
34 مكمورا: محكم الإغلاق
35 السكن: الرماد

تضحك أم داوود:

- ومن يحتاج إلى الفرن وفي كل بيت طابون؟

لقد وصلها الخبر إغلاق الفرن الذي أنشأه خليل، وأقام عليه إبراهيم سمارة عاملا

تفوح رائحه الخبز الشهية، وعلى الإفطار يتحدث الوالد

- داوود وأحمد، أخرجا بالحلال إلى المسقى والمرعى، ولكن قبل ذلك نريد طعاما للجمل، لقد أوشكت الكِرْسَنّة[36] أن تنفذ ويلزم نقع المزيد منها... نقع الكرسنة أطيب وأبرك وأنفع للجمل

يذهب الصبيان إلى البدّ ويسرحان مع الأبقار الخمسة التي تعود لأبيهما: غزالة، وهلالة، وليلى، والسمعانية، وخميسة، وكانت خميسة أحبهن إلى قلب أحمد، ثم الأغنام، وتعدادهن عشرة، وكان الحمار معهما، أما الجمل فيبقى تحت تصرف الوالد في مهمة نقل الماء من ذات البئر، وفوق الأنعام كان يتوفر لديهم الطيور من دجاج وحمام، كانت الأم قد حلبت اللبن من الأبقار قبل الصباح الباكر

أخذ الصبيان الحلال إلى بئر البلد هذه المرة وليس إلى بركة البلد التي تشرب البهائم منها عادة، وهذا لأن البركة تمتلئ بالماء مع نزول الأمطار، ولكنها تنقطع بعد فترة من توقف الأمطار، فيعود الأمر إلى سقي البهائم من بئر البلد التي سمي الوادي باسمها

وهي بئر طبيعية عميقة في الصخور، ماؤها زلال غزير مدرار ونظرا لكثره روادها وغزارة مائها، ونظرا لعمقها وصعوبة الوصول إلى قعرها فقد تصالح الناس على أن يقيموا عليها من يسحب الماء ويجمعه في خزان كبير مزود بالصنابير، يربط عامل البئر الدلو الكبير بحبل ثخين إلى الجمل الذي يسحبه، ثم يفرغه عن محتواه في الخزان

واليوم تحديدا كان أبو داوود مع ولديه عند البئر، هما جاءا لسقي الحلال، فيما جاء هو لنقل الماء على جمله إلى البيت ليفرغه في الهِشَّة[37] وكانت هذه الهشة مشتركة مع أخيه مصطفى، والتي توضع في صدر البيت مرتفعة عن الأرض ومغطاه بمُعَرَّش[38]

وصل الولدان بعد أبيهما إلى البئر، وفي انتظار أن ترتوي البهائم يصل زائر من الخليل اسمه (عبد الله الخليلي) جاء خصيصا للاستشفاء من حصر البول، كان الرجل بادي المرض، شاحب الوجه، يسنده زميل له ويوصله إلى طرف البئر، يرقب الولدان الرجل المريض وهو يملا الكيلة[39] ويشرب ويعبّ منها عبّا وكأنه كان قد أعطش ذاته لهذه اللحظة، جلس الخليلي وزميله في الظل يرقبان الناس غادين رائحين ويشاهدان الرعاء يطعمون ثمار الصبر للأغنام والبقر أعلافا، يلكزه صاحبه قائلا:

- أنظر: نحن نشتري الصبار بالكوز[40] وهم يعلفونه للبهائم في المِذْوَد[41]
- أن لكل أرض ثمراتها وخيراتها ولكل أرض ما ينقصها ويشوبها

لقد شاع خبر هذه البئر في القرى المجاورة، وهناك قصة مشهورة تناقلها الناس عن بدوي سبعاوي جاء بجمل له مصاب بحصر البول، فأوقفه على البئر يشرب حتى ارتوى، والبدوي قائم لا ينفك يدعو الله، وفجأة -وأمام أنظار المرتادين- يقفز الجمل ويفرغ مثانته على وقع صيحات صاحبه وتكبيراته

في فصل الشتاء، ومع نزول الأمطار تكثر البرك والمستنقعات الصغيرة يمنة ويسرة، ويتكاثر البعوض والناموس، فكانت مصلحة الصحة تقيم من يعمل على قش البرك وتجفيفها وسكب السولار فوقها منعا لنقل العدوى[42]

---

[36] الكِرْسَنَّة: نوع من الحبوب يوضع علفا للطيور والبهائم
[37] الهشة: وعاء الفخار الضخم الذي يستخدم خزانا ينزح منه الماء إلى الأزيار الأصغر حجما
[38] المعرش: العريشة
[39] الكيلة: المكيال
[40] الكوز: العنقود من الذرة
[41] المِذْوَد: وعاء الأعلاف
[42] السولار: الديزل

بعد أن ازداد سكان القرية عددا حاول أهلها أن يحفروا بئرا أخرى في وادي الحفاير، ولكن مياهها صدرت زنخة[43] كريهة لا تصلح رِيا ولا سُقيا ولا سباحة فضلا عن شربها، ولعله كان فيها بعض من النفط

بعد أن ارتوت البهائم من ماء البئر توجه الصبيان نحو المراعي بصحبة آخرين من أبناء القرية إلى المناطق السهلية المفتوحة، يسرح بها أصحاب الأنعام في أوقاتها ومناسباتها حسب أنوائها وطوالعها، وكانت الأنعام مصدر الغذاء الأساسي من الألبان والأجبان والسمن، وهذا إضافة لعملها في الحرث والدرس والجر، وهي -مع الجمل والحمار- عدة الفلاح الأساسية لا يستغني عنها بحال، بل كانت في عديدها معيار الثروة والتبسط، وقد اضطر أبو داوود بعد النكبة إلى بيع حلاله كله، ورغم أنها بيعت بثمن زهيد إلا أنه بقي يصرف من ثمنها حتى العام 1951

عاده ما يستغل الأولاد فسحة الوقت في زيارة بعض المعالم حول القرية مثل المزارات والأضرحة، أو كانوا يروحون إلى خربة عمورية حيث يشاهدون خربة القسيس وخربة غلوس وخربة النعمان

هذه المرة يتفق الصبية على الذهاب إلى خربه النعمان وفيها مغاور وكهوف لا زال فيها بقيه من الآثار، كان أوضحها (الرسم) وهو لوحه فسيفسائية مطبوعة على أرض منخفضة كأنها فوهة بركان

يذهب بعض الأولاد إلى الرسم ويتركون آخرين منهم يلحظون الحلال، وفيما يصل الصبية من الجهة الغربية وبمجرد أن تطل رؤوسهم يشاهدون فرقة من الكشافة اليهودية يقتربون من الجهة الشرقية

كان معهم حقائب فيها الكثير من الأغراض: أوراق ملفلفة، ودفاتر، وأقلام، وكاميرات تصوير، وسجلات وملفات

- هؤلاء يهود قادمون من كبانية كفار مناحيم... يقول أحدهم
- صحيح، يقول أبي أنهم يزورون كل المناطق ويصورونها ويسجلون معلومات عنها
- نعم وبخاصه المناطق الأثرية
- الأفضل أن لا نحتك بهم، وعلينا أن نعود أدراجنا
- صحيح، تأخر الوقت

يعود الصبية من خربه النعمان إلى المرعى ثم يعودون أدراجهم إلى القرية، وفيما يركض أحمد إلى أمه ليقص عليها بلهفة ما رآه عند البئر من خبر عبد الله الخليلي، وما رآه عند الرسم من خبر فرقة الكشافة اليهودية كانت الأم منهمكة في إعداد اللبن والجبن والسمن وتحضير الطعام وتجفيف الخضار لفصل الشتاء، وتقول لزوجها حامدة شاكرة

- مع هذا العدد من الأنعام لا حاجة للفلاح في شراء السمن أو الجبن، فالإنتاج وفير مبارك وقد يزيد عن الحاجة، فيخزن للشتاء أو يهدى للأقارب والجيران

يحدثها زوجها واقفا:

- من العيب بيع السمن حتى لو فاض عن الحاجة، لقد حاول إبراهيم العبد مرة أن يبيع سمنا، فعاب عليه أهل القرية فعلته، وانتهروه وأكثروا اللوم عليه، فاضطر أن يتراجع
- يستأهل
- هل علمت بما فعل اليوم؟

لقد قام بتهريب السمن خلسة إلى عجور قبل بضعة أيام، وخرج اليوم خالي اليدين ليتم الصفقة هناك

- عيب عليه والله
- نعم عيب
- نريد بعض الكاز يا أبو داوود
- سأرسل الولد

ينادي أبو داوود ولده أحمد

[43] زنخة: زهمة

- اذهب إلى دكان سيدك حسن وأحضر لنا جلنا من الكاز[44]

كان في القرية دكان واحدة أساسية متواجدة في ساحتها الرئيسية في الحارة، قريبا من مسجد القرية ومدرستها، قام عليها حسن الذي سيصبح ابنه محمد لاحقا أول تجار العشيرة في مهجرها في الأردن وسيكتري محلا في وسط العاصمة عمان في سوق السكر، وكان بالدكان بضائع لا ينتجها المزارعون عادة: الكاز، والكبريت، وخيوط التطريز، والشاي، والسكر، ودبس التمر والعجوة، وكان هناك دكان أخرى أصغر منها في الطرف الآخر من القرية قام عليها كامل الشريف

لم تدخل خطوط الكهرباء للقرية فكان أهلها يستخدمون السراج، وهو القنديل ذو الفتيل واللمبة الزجاجية، ويوقد له بالكاز أما اللوكس أو الشنبر فلم يكن شائعا

في الليل يقوم الفلاحون بدرس الذرة، ويحتاجون للإنارة، وهنا لا يصح إيقاد الحطب حتى لا تمتد النار وتلتهم المزارع، لكن النار كانت توقد في الأعراس والمناسبات والتجمعات

ليل الصيف القصير ونهاره الطويل وانهماك الناس في كثير من الأعمال لا يترك مجالا لأكثر من سهر محدود يتلوه النوم، أما ليل الشتاء فطويل، ويحلو فيه السمر وبخاصة مع قلة الأشغال نهارا

يجلس الكبار يتسامرون، أو يلعبون السيجة (النقدة) في الحارة أو أمام ساحات البيوت

لم يكن بالقرية حتى وقوع النكبة مقهى أو ناد للشباب، ولذلك اعتاد الناس على السمر بتبادل الأحاديث أو بالاستماع لشاعر شعبي من المحترفين يقص عليهم تغريبة بني هلال، أو الزير سالم، أو سيف بن ذي يزن، وقد يكتفي الناس بالسماء لشاعرهم محمد سمارة الذي كان يلقي الأشعار بالبديهة والسليقة، وأما الأطفال فقد يأتيهم من خارج القرية من يقدم لهم الألعاب، مثل صندوق العجب يروي فيه قصة الإمام علي مع راس الغول

أكان أحد من القرية يتوقع أن يأتي يوم تكون فيه تغريبتهم حديث المجالس؟

أو تكتب فيه الروايات؟ كما أنا جالس الآن أفعل ذلك من مقامي بالدوحة

أقطع أن الجواب: لا

الجلوة والصلح

مما يذكره أحمد- وكان في بداية وعيه، وعمره بحدود الرابعة- أنه شاهد سيارة غريبة الشكل (مدرعة)، تبين له لاحقا أنها سيارة عسكرية تابعة للبوليس

- ما هذا ، لماذا تقف هذه السيارة أمام دار عبد اللطيف سمارة
- إنهم البوليس جاؤوا لحماية عائلة أبو حديد
- يحمونهم؟ ممن؟
- من عشيرتنا، لقد قتل أحدهم عمر
- كيف؟
- تشاجر عمر مع واحد منهم، ولأن عمر ضخم الجثة قوي البنية فقد فر منه الآخر، ولحقه عمر، وإذ بشقيق الهارب يعترضه في الطريق، ويرميه بحجر شج رأسه، وكانت إصابة قاتله
- متى حصل هذا؟

[44] الجلن: وعاء للسوائل، كلمة محرفة من الجالون، والكاز هو وقود الكيروسين

- كله حصل اليوم في ساعات الصباح، ولم يصل الخبر إلى أغلب الناس، فقد كانوا في الحقول يحصدون محاصيلهم، لذلك حضرت الشرطة فورا خوفا من انتقام عائلتنا

بقيت الشرطة في القرية إلى أن تم إجلاء جميع أفراد عائلة أبي حديد إلى قرية المسمية وكان هذا في العام 1940، ثم قام أفراد عائلة عمر القتيل بهدم دورهم من أساساتها، وبقيت مهدمة حتى احتلال القرية

مضت سبع سنوات على جلاء عائلة أبو حديد من القرية وتقرر أخيرا إجراء الصلح ودفع دية القتيل، وجاءت الوفود من القرى المجاورة تساهم في الصلح

جاء (أبو نجيب مهنا) وجيه قرية المسمية متكلما وكفيلا عن عائلة أبو حديد ، وجاء (حسن عبد العزيز العزة) وجيه عجور متكلما وكفيلا عن عائلة أبو عجمية، وكان التجمع في الجسر

على مدى أشهر سابقة من المفاوضات، تم الاتفاق على تفاصيل الصلح، ولم يبق إلى الإعلان والتنفيذ بصورته الرسمية

حضرت الوفود

وحضر البوليس

واستعد المحتفلون بالذبائح والقدور لإطعام الناس طعام الصلح: المنسف

كان الصغار ينتظرون نضج اللحم

تم الاتفاق، وبدء فرش المناسف تمهيدا لتوزيع اللحم الناضج، ثم وقعت مفاجأة

فقد اندفعت نساء من بنات عم القتيل ومعهن أخريات، وهجمن على المطبخ، وأخذن يكفأن القدور على الأرض، فدبت الفوضى وانتفض الناس وبدأ البوليس على ظهور الخيل يضربون ويعتقلون رجالا من العائلة واقتادوهم إلى مركز بيت جبرين وهناك تم إجراء الصلح رسميا وبعد يومين عاد رجال العائلة إلى القرية، أما عائلة أبو حديد فلم يعودوا للقرية بل بنوا لهم بيوتا في أرض لهم تقع شمال القرية تسمى أم الشقف

مدرسة مغلس

سيذهب أحمد اليوم إلى المدرسة لأول مره في حياته، هي ليست مدرسة بالمعنى الحديث، وإنما كُتّاب من الكتاتيب، وقد كانت المدرسة الوحيدة في القرية، يقوم عليها الشيخ محمود أحمد حسين، وهو أيضا إمام مسجد القرية الوحيد والخطيب فيه، وكان المسجد ملاصقا للمدرسة

كان الشيخ يصعد سطح المسجد -الذي كان بلا منارة- يؤذن للصلوات ويؤم الناس ويخطب ويدرس

تقع المدرسة عند الحارة، وهي مدرسة قديمة[45]، وكانت المدرسة أهلية حتى العام 1946 عندما انضمت لوزارة المعارف التابعة لحكومة شرق الأردن، ويتذكر أحمد سرور الشيخ محمود بانضمام المدرسة إلى وزارة المعارف، فهذا معناه أنهم سيجرون له

[45] كان يقوم على التدريس فيها قبل الشيخ محمود الشيخ عيسى الباز الخطيب من قريه عاقر، وقبله الشيخ شوكت من نابلس، وقبلهما الاستاذ عبد المعطي طالب من الخليل

راتبا نظاميا، فلم يكن قبلها بالطبع رواتب ولا جرايات، وإنما أُعطيات من الأهالي من المحاصيل الزراعية: من حبوب وأجبان تدفع في المواسم الزراعية

يُدرس الشيخ محمود كل المواد وحده في الفصول: القران الكريم، واللغة العربية، والحساب، وبعضا من اللغة الإنكليزية، وبلغ من حرصه ونباهته أنه كان ينتظر الطلبة العائدين من مدارس القرى المجاورة فيسألهم عما تعلموه من اللغة الإنكليزية، فيحفظ منهم بعض المفردات ويعيد تدريسها لطلبته، كما فرض الشيخ على الطلبة الذهاب إلى المسجد الذي كان مكونا من غرفة واحدة ربما كان ذرْعها ثمانية أمتار في ستة أمتار

ولدخول أحمد المدرسة، ثم ارتقاؤه فجأة من الصف الثاني إلى الرابع قصة لطيفة

ذات يوم طلب منه جده الحاج حسن تهجئة اسمه، ففعل، فأعجب بحفيده، وكان مدرس القرية الشيخ محمود قبلها يزور الحاج حسن كثيرا ولا يرد له طلبا

- اسمع يا محمود، أترى هذا الصبي؟ أحمد
- نعم
- ضعه في المدرسة، في الصف الأول
- إنه صغير يا عم
- ما عليك من صغره فسيعجبك، وفي نهاية الموسم تأخذ نصيبك من القمح
- على بركة الله

وفي عام 1943 دخل الصف الأول الابتدائي، وفي السنة التالية انتقل للصف الثاني

وعلم الشيخ ذات يوم بأن مفتش المعارف سيزور المدرسة فأتاه الشيخ بالجريدة الرسمية التي تصدرها الحكومة

- أحمد، المفتش سيأتي اليوم، وعليك أن تقرأ من الجريدة الرسمية
- حاضر
- لنجرب، اقرأ الآن أمامي

شرع أحمد بالقراءة، فكان يقرأ الكلمات جيدا ولكن عندما يصل الأرقام يعجز عنها

- لا أقدر على قراءة الأرقام
- لا بأس، فقط تجاوز عنها

وهكذا كان، جاء المفتش، واستمع للصبي بعناية، وبعد الإصغاء نطق المفتش بكلمة غريبة لم يفهمها أحمد

- عفارم
- !!!

ولما كان أخوه داوود في الصف الرابع فقد كان يطلع على دروسه فيحفظها كلها أو جزءا منها، وكان الطلبة جميعا في غرفة واحدة، من الصف الأول إلى الرابع، وكان في الصف الرابع تلميذ اسمه علي، أخرجه الشيخ كي يجيب سؤالا، فعجز عن الإجابة فوبخه الشيخ:

- هذا سؤال يستطيع ابن الصف الثاني أن يجيب عليه

من يعرف الإجابة من طلاب الثاني، أو الثالث؟

- أنا يا أستاذ، (رفع أحمد يده)
- اتعرف الإجابة؟
- نعم
- طيب، أخرج وأعط الإجابة كي يفهم هذا "الحمار"

ولما أجاب السؤال قال الشيخ:

- اشلع أذنه
- حاضر

يحاول أحمد أن يقرص أذنه

- علي طويل، لا أستطيع الوصول إلى أذنه
- علي، اخفض ظهرك حالا
- طيب

وتمت العقوبة

وكان من عادة الشيخ -وقت الاستراحة- أن يجلس أمام الدكان الواقعة قبالة المدرسة، يتحدث مع محمد حسن، فقص عليه ما جرى بين أحمد وعلي، فقال:

- إذا، ضعه في الصف الرابع
- إنه صغير على الصف الرابع
- أقول: ضعه وستزيد حصتك من القمح
- ليس الأمر في الحصة
- قلت لك ضعه في الرابع، وإلا فاني سوف أحكي لوالدي، وأنت لا ترد له طلبا
- ماشي، توكلنا على الله

وهكذا صار أحمد فجأة أحد طلاب الصف الرابع، وكان نصيبه أن يجلس مع علي في مقعد واحد

الراديو

لم تكن في قرية اذنبة مدرسة، فكان صبيانها يأتون إلى مدرسة مغلس، وكان عددهم يقارب العشرة، وكان مختار قرية اذنبة والد أحد الطلبة، حمله الواجب على دعوة المعلم وبعض الطلبة إلى طعام الغداء في بيته

دلفوا بيت المختار وقدم لهم طعاما من البيض المقلي والسلطة واللبن المخيض، وبعد الانتهاء من الطعام قام المضيف إلى صندوق من الخشب في صدر البيت وحرك حلقة بارزة فيه، وإذ به -يا للعجب- يهدر منه صوت عال فيه حشرجة

نظر الأولاد: أين المتكلم، لا أحد هناك، والصندوق لا يتسع أصلا لكبير أو صغير؟

- إنه الراديو
- أهذا هو، الذي نسمع عنه ولم نره من قبل

ولما كان أحمد يقص على الأولاد الذين لم يحضروا الغداء أنه شاهد الراديو وسمعه، لا يكادون يصدقون، ويغبطونه على عظيم حظه

مدرسة تل الصافي

ينهي أحمد دراسة الصف الرابع في مدرسته بمغلس لينتقل بعدها مع زملائه لإتمام الدراسة في تل الصافي[46] وكان عددهم أربعة عشر طالبا[47]

في البداية كان لابد من امتحان الاجتياز ليثبت أهليته للصف الرابع، يجتاز أحمد وبعض ممن معه ويترفعون إلى المستوى الخامس فيما يعاد نفر آخر إلى الصف الرابع بل أعيد بعضهم إلى الصف الثالث

كان الذهاب إلى المدرسة مشيا على الأقدام، وأما أخوه داوود فلم يذهب لانشغاله مع والده

استمر أحمد في هذه المدرسة سنة واحدة فقط، أتم فيها الصف الخامس، وبعدها كانت العطلة الصيفية التي وقعت النكبة في أثنائها

خميس البيض

هذا صباح آخر ربيعي بامتياز، فيه مناسبة يعشقها الصغار وينتظرونها من عام إلى عام وهي: "خميس البيض" من شهر نيسان الذي تليه الجمعة الطويلة حتى انهم ليسمون هذا الشهر: "شهر الخميس"

الأمهات يسلقن البيض بكثرة، وبالألوان الزاهية يصبغ الأولاد مع أمهاتهم جدران البيض، ثم تنطلق مباريات التحمل... يتبارى الصبية فيمن يكسر بيضة الآخر، ويا لها من فوضى، أما في الجمعة الطويلة فكانوا يصبغون الخراف بالألوان، وفيما ينطلق الصغار باللعب، كانت الأمهات يصنعن الحلويات، وأهمها البحتية[48]

كان موسم الخميس مهما في القرية، لأن المواسم الأخرى التي كانت منتشرة في فلسطين لم يكن يقام على أرض مغلس منها شيء، مثل موسم النبي روبين، وموسم النبي صالح، وموسم النبي موسى، وهذه مواسم كان يرتحل إليها بعض الكبار في مواعيدها، يحضرون الموالد ويعودون بأخبارها، ولم تسنح الفرصة لأحمد أن يحضر بعض هذه المواسم في طفولته في القرية

[46] كان مدير المدرسة عبد القادر زلوم من الخليل وكان مربي الصف راتب الشريف من الخليل، ومن المدرسين: خليل أبو بكر من الفلوجة، وإسماعيل حجازي من تل الصافي، وخليل حسن سمور مدرس اللغة الانكليزية من بيت جبريل، وعبد ربه الحيدة مدرس الرياضيات من تل الصافي

[47] كان الطلبة هم: أحمد محمود، وعمر وأخيه محمد مصطفى، وعبد الرحمن نمر، وكامل محمود، وعبد الحميد حسين، ومحمد وأخيه أحمد عرب، ومحمود ياسين، وخليل وأخيه فخري محمد، وعثمان عيد، وأحمد طه

[48] البحتية: مهلبية الرز مع الحليب والسكر

التعليلة

لم يكن هذا النهار مميزا فحسب بل كانت ليلته كذلك، فهذه أيام التعليلة، إذ كانت القرية تتهيأ لعرس زفاف جديد، فقد كان من عاداتهم أن يجتمع الشباب للدبكة والسامر والمباريات قبل العرس بيومين أو ثلاثة

كانت سهرة رائعة، أشعل فيها الشباب نارا عظيمة عند شجره السدر العملاقة المسماة سدرة الجرن في شرقي البلد، يرقص الشباب في دبكتهم الفلسطينية المعروفة، فيما يعزف أحدهم على الطبل يعزف آخر بالشبابة، وكانت هذه أكثر ما عندهم من أدوات العزف، فإن القرية لم تعرف اليرغول والقربة

شارك أحمد شباب القرية في الدبكة والغناء، ولكن هذا لم يعجب الأب الشديد، ورآه عبثا ورعونة وطيشا

يعود أحمد إلى البيت فيستقبله الأب بنظرات السخرية:

- حلو جعيرك[49] يابا؟
- حلو رفيسك يابا؟

لم يدر أحمد بم يجيب، لكنه أدرك أن هذا لم يعجب الوالد، فانسحب من قدامه، وقرر أن لا يعود إلى مشاركة الشباب في الأحفال، وأصلا: لن تسنح له الفرصة لذلك، لقد كان هذا آخر حفل زفاف يقام في القرية قبل النكبة، وقد قضت حياة المخيمات على أي أنفاس وروح للفرح لسنين عددا

في يوم العرس كان الشباب يصطحبون العريس[50] إلى بئر البلد للاستحمام، فيقومون بتسخين الماء وتجهيز الملابس، وبعد الاغتسال يكسى الشاب بكسوة العرس، ويعطر، ثم يزف من البئر إلى ساحة البلد وسط الغناء والطبل والزمر، وأما العروس فكانت تزين بالحناء، وتكسى بعباءة واسعة، وتحمل في هودجها فوق الجمل المجلل بقماش أبيض، وثم تزف فيما يعرف ب "زفه الفاردة" وكثيرا ما كانت تخرج الفاردة من بيت أحد الأقارب أو الجيران الذي تحمله الأريحية على أن يعزم على أهلها أن تنطلق من بيته، أو يستوقف بعض الكرماء الموكب كله في دعوة للشاي أو الشراب

تنطلق الفاردة إلى ساحة البلد، وهناك تقام أحفال أخرى يبدعها الشباب

فقد يتسابق البعض فوق ظهور الخيل

وقد ينصبون الشارة (حجر أبيض معلم يستخدم هدفا) ويضربون عليه بالأهداف

ويسبق ذلك كله خروج الجاهة لطلب يد الفتاه، وفي تلك الأيام كانت جاهة الطلب حقيقية، وكانوا يتفاوضون على المهور حقيقة، لكنها تحولت إلى مظاهر شكلية مع الأيام، وهناك عادات أخرى ظهرت في البلدات الفلسطينية وانتشرت القرى مثل عادة ثوب العم والخال، الذي يُهدى للعريس، وهذه أيضا تحولت إلى شكليات، فصار الثوب يعاد إلى مانحه في بعض الأحيان، وبخاصة أنه كان يطالب بارتدائه في المناسبات، ويلام إذا لم يفعل، فصارت ثقلا على الشباب، وكان أكثر أثواب الرجال الكِبْر (القمباز) وللنساء الثوب المطرز بتشكيلات تختلف من منطقة لأخرى

وإذا صادف أن كان العريس من بلده أخرى فإن موكب الزفاف كان يسير من هذه القرية إلى تلك القرية، يلتقي الجميع في الوسط وتبدأ الاحتفالات، وكان هذا التقليد يعرف ب "شالة الشباب" أو "شارة الشباب"

[49] صوت البهائم

[50] الأصل في اللغة أن العروس كلمة تطلق على الشاب والفتاة ، ولكن جرت العادة أن تطلق للفتاة فقط، فيما يقال للشاب: العريس، أو المعرس

وأما الأعياد ورمضان فهي قصة فرح أخرى

في أيامنا المعاصرة: عندما يقترب رمضان تزدهم الأسواق جدا بالباعة والمبتاعين، لكن الأمر كان مختلفا في مغلس وشبيهاتها من القرى، فإن المؤن كلها متوفرة بالفعل من الحليب والقمح والبرغل والتمر، وكان من عاداتهم أن يفطر الرجال معا في المضافة المركزية، والتي يسمونها "الحارة"، فكان رب كل أسرة يحضر من بيته طعام الإفطار، ويتشارك الكل مع الشباب والصبية المميزين ومعهم الضيوف طعام الإفطار

كان للقرية حارة واحدة عند مسجد الشيخ منصور مكونة من غرفة واحدة تبرع بأرضها أحد مشايخ القرية وقام الأهالي ببنائها في زمن القياسي في عونة[51] مشهورة

في ليالي رمضان يقوم المسحراتي ويذكر الناس بالتسابيح والنداء ويوقظهم للصلاة والسحور، وفي آخر أيام رمضان تستعد النسوة للعيد بصنع الكعك والحلويات والمخمرات[52] أو كانوا يعدون القمح المقلي بالزيت أو الحلويات، التي كان أشهرها كعك العجوة

في يوم العيد ينطلق الناس بعد صلاة العيد يتبادلون التهاني ويسلمون على أقاربهم وذويهم، فيما ينطلق الأولاد في كل مكان يلعبون ويمرحون وكأنهم كانوا في حبس!!!

كانت زياره القبور في الأعياد من العادات الثابتة، يأخذ الناس معهم كعك المخمرات إلى المقابر، ويوزعونه صدقة عن أرواح الموتى على الوافدين وعلى كل من يصادفون في طريقهم

كانت المقبرة في الجهة الشرقية الشمالية من القرية، وهي مسورة بأشجار الصبر، ولم تكن القبور فيها بارزة، بل كان أكثرها مسوًى بالأرض

كان أحمد يعرف مكان قبر عمه الذي مات شابا، ويوم مات جده لأمه دفن في نفس القبر، ثم أضيف إلى المقبرة قبر أخيه الرضيع محمد، وأخيرا قبر أمه

بعد النكبة لم تعد هناك مقبرة، فقد كان مصيرها التجريف، شأنها شأن بيوت القرية ومعالمها

كان الموت حادثا جللا في قرية صغيرة كهذه تتوقف لأجله الحياة، حتى إنهم ليرسلون الرسائل إلى المزارعين في الحقول والحواكير بالعودة

وكان من عاداتهم ان تقدم العشيرة الأخرى لعشيرة الفقيد طعام الغداء أو العشاء

ولكن هذه العادة تقلصت بعد النكبة وانحصرت داخل العشيرة الواحدة بسبب تفرق الناس وضيق الحال وقلة الأماكن الجامعة، ثم تقلصت أكثر حتى غدت في البيت الواحد، وصار نادرا أن تعزم عشيرة على عشيرة المصاب، إلا ما كان من خبر أهالي مغلس في مخيم حوض البقعة بالأردن، فلا زال شائعا أن تصنع عشيرة طعام العزاء لعشيره الفقيد

كان عيد الأضحى جميلا ومميزا كعيد الفطر، وكانوا يسمونه "العيد الكبير"، فما يطلقون على عيد الفطر "العيد الصغير"

[51] العونة: حملة يتعاون فيها أكثر أهل الحي على بناء بيت لأحد أفراد القرية

[52] المخمرات: خبز مخمر بزيت الزيتون من القمح الصافي الذي لا تشوبه الذرة

في عيد الأضحى لابد من تناول اللحم لارتباط العيد بالأضحية، بالإضافة إلى الحلويات المنزلية الصنع، وأما العائدون من الحج فقد كانت تقام لهم استقبالات خاصة، وهذه عادة موجودة في كل فلسطين وفي معظم أرجاء العالم العربي والإسلامي، ولهذا الأمر طقوس، نظرا لطول رحلة الحج وخطورتها في تيك الأيام، ومن طقوسها تزيين مداخل البيت بسعف النخيل

لكن أحمد لا يعلم أن أحدا من أهل القرية جهز نفسه خصيصا للحج، وذلك بسبب تكلفه الحج المرتفعة التي كانت أكثر من قدرة القرويين، وقد كان أكثر الحجاج من قريتهم ممن خدموا في العسكرية مع الجيش العثماني فصادف أن كانت خدمتهم قريبة من مكة

يافا

لم يكن بالقرية طبيب أو عياده، ولذلك: فعندما يمرض أحد الأهالي مرضا يزيد عن معرفة حلاق القرية أو إمكاناته، فإنهم كانوا يذهبون به إلى مستعمرة كفار مناحيم المجاورة، وفيها عيادة تعالج من السخونة، ورمد العين وغيرها من الأمراض البسيطة، فاذا زاد الأمر عن ذلك كانوا يذهبون بالمريض إلى المستشفى الفرنساوي في يافا، أو إلى مستعمرة عيون قارة قرب يافا، أو إلى أي عيادة خاصة من عيادات يافا، وفي بعض الأحيان اختار ناس من أهل القرية الذهاب إلى عيادة السروجي في بيت الجمال في قضاء القدس

انتشر مرض التيفوئيد في البلد مع انتشاره في عموم المنطقة، وأصيب به جمع من أهل القرية، منهم من أدركته الوفاة، مثل خالته سارة التي توفيت عروسا متزوجة حديثا (والحنة على يديها)، وكذلك محمود أحمد ابراهيم من الصرابطة، وأصاب المرض أخاه الأكبر داوود، واشتد عليه المرض فاحتمله والده إلى يافا، وطالت غيبته، وزاد مرضه حتى أوشك على الهلاك، وفي النهاية نجا منه بأعجوبة

وكان أبوه يعوده في يافا، وفي إحدى المرات يأخذ معه أحمد

كانت هذه أول مرة يرى أحمد فيها يافا

مدينة جميلة، أحبها، وأورث حبها لأبنائه، وكان معجبا بقصيدة محمد مهدي الجواهري التي ارتجلها يوم حط ركابه في يافا

بيـافا يـوم حـط بهـا الركـاب	تَمَطَّـر عارض ودجا سـحاب
وقفـت مـوزع النظـرات فيها	لطرفي في مغانيها انسـياب
وموج البحر يغسـل اخمصيها	وبالأنواء تغتسـل القباب
وبـيـاراتـهـا ضـربت نطاقا	يخططها كما رسـم الكتاب

وكانت المرة الثانية عندما مرض أخوه محمد

والمرة الثالثة في زيارة أمه، بعد أن مرضت مرضا شديدا عقب أن أنجبت له فاطمة آخر أولاده

يأخذ أبو داوود زوجته المريضة وأولاده، ومعهم شقيقة زوجته ويسير بهم إلى يافا، وكان مقصدهم عيادة الطبيب "حمدي التاجي الفاروقي"

يتذكر أحمد ملامح العيادة والطبيب، لكنه بالطبع لم يكن يفهم شيئا عن ماهية المرض وخطورته، ولا يذكر جيدا تداعيات هذا المرض عليها، ولكنهم في النهاية يعودون أدراجهم إلى الريف

ويبدو أن المرض اشتد أكثر على الأم فاحتاج الأمر إلى زياره أخرى

يحمل الرجل عائلته وينطلق نحو ذات العيادة في يافا

هذه المرة كان أحمد اشد وعيا من المرة الماضية، فمعالم الطريق محفورة في ذهنه كنقش على رخام

هنا بيت قديم من الحجر على تله مرتفعة

هنا طريق مشجر فيه أعمدة الإنارة والكهرباء

وهذا الشارع التجاري الذي فيه عياده الطبيب

يبحث الوالد عن العيادة في شوارع المدينة، لكنه تاه عنها، فيحاول تذكر شكل البناية والمدخل فلا تسعفه الذاكرة، ويسيح في الشوارع المحيطة، وهنا يتدخل الصبي النبيه ويصيح:

- هناك هناك
- ماذا ترى يا أحمد
- اللوحة.... مكتوب عليها: "حمدي التاجي الفاروقي"

في هذه الزيارة سيشاهد البحر لأول مرة، وستتاح للعائلة الفرصة لتناول الطعام على الشاطئ

كان أحمد مسرورا، ولم يكن يدرك كثيرا جبل الهموم الذي يعصف بوالده المسن

الزوجة مريضة جدا، وحالها لا يزداد إلا سوءا

عندما يعود الركب إلى القرية لن تمكث الأم طويلا، إذ كانت -ولحكمة عند الله- قريبه جدا من لقاء ربها

الأراضي

كان سهم ابي داوود من الأراضي المفتلحة يبلغ نحوا من ثمانين دونما من أصل 400 دونم هي ما تركه الجد لأبنائه الخمسة محمود وخليل ومصطفى ويوسف وعبد الرحمن، وهذا بخلاف الحواكير المسورة بالصبر أو السناسل، والمزروعة تينا وزيتونا في أشجارها وخضروات وبقوليات في أرضها

وكان أهم حواكيرهم، حاكورة الشامية، وحاكورة القبلية، وحاكورة التعميرة، وحاكورة الجسر

التين والزيتون هما الشجرتان الأساسيتان في مغلس، وأما الخضروات والمقاثي فكان منها الكوسا، والخيار، والبندورة، والفقوس، والبامية، والفاصولياء، ولم يكن هناك بيوت بلاستيكية، فكانوا يجففون خضار الصيف للإفادة منها في الشتاء، وبخلاف الحواكير والأراضي المفتلحة كان هناك أراض صخرية تسمى "ظهرات" غير معدودة في الأسهم

وأما المساحات التي ما بين القرى فقد كانت تنتشر فيها الغابات الحرجية بأشجارها التي تتنوع ما بين السرو والصنوبر والجميز والخروب وتغطي مساحات شاسعة بين عمورية وعجور ومغلس

وفي مغلس كانت شجره الخروب رئيسية، فهي ظل وحطب وطعام للدواب

الدواب

كانوا يستخدمون الدواب لحراثة الأرض باستخدام زوجين من الثيران يخصصان للفلاحة، يسميان "جوز[53] العمالات" فيوضع النير على رأس كل واحد منهما لجر السكك وحراثة الأرض، وأحيانا يستخدمون الجمل، أما التراكتورات الزراعية فلم تدخل البلد الا نادرا، وكانوا عند حاجتها يستأجرون واحدا من تل الصافي، أما في كبانيه كفار مناحيم فكانوا يزرعون بالطرق الحديثة من تراكتورات وتقاوى ومبيدات

يتجهز أبو داوود لحراثه الأرض، فيستدعي أولاده للذهاب إلى بيت النجار إسماعيل لإحضار عود المحراث وبعده إلى الحداد الهنوك لإحضار سكه المحراث

يذهب الصبيان إلى منجرة النجار إسماعيل المقامة داخل بيته، هذا البيت الذي ابتناه له أهل القرية بالعونة، إذ أن إسماعيل لم يكن بالأساس من أهل القرية وإنما قدم للعمل بها، ولكثرة حاجة أهل القرية لأعماله فقد قرروا مساعدته على الاستقرار في البلدة

في باحة البيت يجد الأولاد النجار يعمل بهمة عالية مع أدواته وعدده الكاملة

كميات من الأخشاب....

مناشير وأزاميل متنوعه....

مسحاة ومسامير وصمغ...إلخ

كان إسماعيل فنانا ماهرا كما يصفه الناس، يتقن صناعة كافة الأعمال الخشبية، وكان أحمد معجبا به حتى أنه صارح أخاه أنه يريد أن يصبح نجارا

بعد المنجرة يتوجه الصبيان نحو خرابيش النَّوَر[54] المقامة على أطراف القرية، وكان النوَر يعملون في بعض المهن من أبرزها الحدادة، وكان أشهرهم الحداد (أبو نزهة) الذي كان يتحرك بين مغلس والبريج

يتجول الأولاد بين خرابيش النور يَعجبون لنمط حياتهم ولباسهم وطريقه كلامهم، وكأنّ بينهم وبين التمدّن ممانعة مركوزة في جيناتهم

لم يكن الحداد الهنوك واحدا من النوَر، وإنما كان مقيما قريبا منهم، والهنوك له قصة يعرفها أهل القرية جيدا، فبالإضافة إلى كونه حدادا ماهرا يصنع سكك المحراث وحذوات الخيل وباقي المشغولات الحديدية إلا أنه كان معدودا في المجاهدين، يحمل شهامتهم وجرأتهم، وقد أصيب إصابة بالغه في معركة وادي الصرار واضطر الطبيب على إثرها لبتر ساقه، وقد قضى بقية حياته في (مادبا) بالأردن لا يفتأ يذكر مغلس، ولأن النور ومعهم الهنوك لم يكون مستقرين في المنطقة فقد تنازع على خدمة القرية بعدهم حدادان: خليلي ورملاوي، وانتهت المعركة بانتصار الخليلي بالطبع

هكذا كانت المهن في القرية، بساطة شديدة، بل إن القرية لم يكن بها خياط ولا مبيّض نحاس، فقد كان الخياطون في عجور، وأما تبيض النحاس فقد كان يقوم به عامل يأتي من مصر يدور على البلدات لهذا الغرض

يأخذ الصبية الأدوات ويعودان إلى والدهما الذي يقوم بفلاحة الأرض بمعاونة أبنائه وأبناء أشقائه، وقد كان الأولاد يومها هم عدة الفلاح للحرث والبذر والحصاد، وكانت القوه مع الكثرة، ويقع أحيانا أن يكون عدد الأبناء زائدا عن حاجة العمل في الأرض، فكان الفلاح يرسل أولاده للعمل في المدن والقرى المجاورة، وكان أقرب مكان يذهبون إليه هو كامب وادي الصرار وهو مخيم انكليزي كان يحتاج إلى اليد العاملة، فكان بعض شباب القرية يذهبون للعمل فيه

تزهر الأرض وتخضر، ويحين موعد الحصاد من العام 1946

وكان موسما طيبا

[53] جوز: تحريف عن كلمة زوج
[54] النور: الغجر

يحصد جميع أعمامه أراضهم إلا والده، الذي داهمه قبل الموسم بقليل مرض حاد اضطر على إثره للانتقال إلى المستشفى الفرنساوي في يافا، وطال مرضه، وخشي الناس على الزرع أن يتلف، وصاح صائحهم (أبو كامل) بعد أن جمع أبناء عمومته:

- *يا أولاد عمي، أبو داهود في المستشفى وزرعاته راح تاكلها الدواب*

أشار الناس بالبنان إلى الشابين محمود ومصطفى أبناء إبراهيم حسن

- هل تذهبا لحصاد الأرض؟
- طيب، أإن لنا لأجرا؟
- نعم، أجركم: وعاء كامل من فته الحليب، قالها أبو كامل
- على بركه الله

تبدا حفلة الحصاد مع غياب الشمس، وتستمر طوال الليل لتنتهي مع شروق شمس اليوم التالي وقد حصد الشابان وحدهما ثمانين دونما من الزرع، ولا غرو، فقد اشتهرا بأيديهم التي تحصد كما المكائن

وطبعا فإن الأعمال لا تنتهي بالحصاد، فهناك التذرية، واستخراج الحب وتجميعه وتخزينه، وربط القش وترصيصه، ثم طحن القمح دقيقا، وقد كان هناك ثلاثة بوابير للطحن في المنطقة لم يكن في مغلس واحدة: الأولى في البريج، والثانية في تل الصافي، والثالث في عجور، وكان أكثر ما يطحنون في تل الصافي تجنبا لزعران[55] الشوارع ومشاكلهم على طريق عجور، وأما درس الزيتون فكان لابد من عجور ففيها وحدها المعصرة

وبخلاف الحبوب والخضروات فقد كانوا يزرعون نوعين من الدخان: الهيشة (الماردیني) والشامي، وكانوا ينشرون أوراق الدخان على حبال الغسيل لتجف ثم يستعملونها، أو يبيعونها لتاجر التبغ "عبد القادر الحوساني" الذي يقدم من حوسان خصيصا له، ولفترة ما كانت زراعة التبغ ممنوعه بأمر الحاكم الانكليزي احتكارا له، وكانوا يقومون بجولات تفتيشية وحملات دهم، ووقع مرة أن داهموا بيت أبي داوود الذي كان مدخنا ويحتفظ بكميات منه، لكن أم داود تداركت الأمر وأسعفها الوقت أن تدس الدخان في التبن

سواليف الحصيدة في جليا

تقع جليا شمال غرب مغلس، ومعظم أراضيها كانت مملوكة للحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وكان لبعض أهالي مغلس أرض بها، فكان أبو داوود يتوجه لحصادها، ثم يأخذ الزرع إلى الدرس في ذات القرية، قبل أن يعود به إلى مغلس، ولذلك كثر قدومهم ومكثهم في جليا، ومعها تكثر "سواليف الحصيدة"

وفي إحدى المرات يخرج أحمد مع والده، وبينما هم جلوس في ظل شجرة أثل في جماعة من الرجال وبعض الغلمان، يطلع غلام من أترابه مناديا:

- *مين بياطح؟*
- أخرج له يا أحمد (قالها عمه مصطفى)

ينظر أحمد، فبدا له الغلام أقوى وأوسع حجما، فيتردد ويحجم

[55] الزعران: البلطجية، الفتوات ومفتعلي المشاكل

- قم وإلا... (صاح به والده)

يشتبك الغلامان، ويحاول صاحب الدعوة أن يقلب صاحبه، فيشد، ويهز، ويشد، ويهز، ولكنه يفشل، كل هذا وأحمد لم يحاول، يتشجع أخيرا، ويهزه، فيقلبه، ويطرحه أرضا

- *لا، لا، لا، غير محسوبة، هذه بطحة كلاب*، (قالها حسني ظاظا والد الصبي)
- لا بأس، نعيد الكرة

ويعود الغلامان، ويعيد أحمد الكرة

- *محسوبة، معلهش*

وصار بعدها الغلامان من أعز الأصدقاء

سواليف أبو سليمان

في المساء كثيرا ما كان يأتي بعض أهالي جليا للسمر والسهر عندهم في البيدر ومن أولئك الأشخاص رجل قصير القامة خفيف الظل حلو الحديث صاحب نكتة اسمه: أبو سليمان، كان قد التحق بالجيش التركي في سوريا فتزوج امرأة سورية، ولما انتهت مدة خدمته عزم على الرجوع إلى قريته، فطلب من زوجته الرحيل معه، فرفضت قائلة له:

- *أروح معك ليش؟ أنا ماخذتك على طول قامتك؟، والا على وجهك مثل وجه القرد؟*

وحدث مرة أن جاء إلى جليا رجل نصراني وأعلن إسلامه، فاحتفل به أهالي جليا، وصاروا يقدمون له الطعام والشراب والفراش بالتناوب فيما بينهم، ولأن الطقس كان صيفيا، فقد كان أكثر الرجال ينامون في البيادر في العراء

وجاء الدور يوما على أبي سليمان لإكرام النصراني فأحضر له الطعام والفراش واستلقى نائما، ويبدو أنه تكشف أثناء النوم فأصابه البرد وأصيب بالإسهال فأحدث كثيرا في ثيابه، وجاء أبو سليمان في الصباح ليأخذ الفراش، ولما رأى القذارة جن جنونه، فأمسكه من يده وسحبه مبعدا به عن المكان وقال له:

- *يا لعين الوالدين، انقلع من هون، والله إذا شفتك في أطراف جليا لألعن دينينك: القديم والجديد*

ولما كان أبو سليمان يرويها بطريقته الفريدة كان الرجال يضحكون حتى تنهمر دموعهم

بعد الانتهاء من درس الزرع في جليا عبأ أبو داوود الحبوب في أكياس وعبأ التبن والقصل في الجوالق، ثم قال لابنه

- ستنام باكرا يا أحمد، وسأنبهك في الغد لتذهب إلى القرية وتحضر الجمل لنقل الحبوب والتبن
- حاضر يا أبي

وفعلا يوقظ الرجل ولده

- هيا قم
- الظلام دامس يا أبي
- ستطلع الشمس عما قليل

كان أحمد في نحو الثامنة من عمره، وخجل أن يصرح لوالده بشعور الخوف في هذه العتمة، فركب الحمار، ولم يفطن أن يرفع المخلاة[56] إلى رقبة الحمار

تحرك خائفا في الظلام الكثيف، وكان يتوقع أن يهاجمه الضبع أو أن يخرج لي (القتيل) من العُرقان[57]، وكانوا يقولون أن الضباع تخرج من العرقان وتلتهم العابرين

لم يهدأ خوفه حتى وصل الطريق الرئيسي الذي يربط مغلس بقزازة ثم الرملة، وهناك لاقاه مجموعة من شباب القرية ذاهبين للعمل في كامب وادي الصرار فسألوه:

- من أين أنت قادم يا أعرج؟
- من جليا
- جليا،؟ في هذا الوقت المبكر؟
- نعم
- إذا متى خرجت؟
- خرجت، هذا المهم
- انظر: المخلاة في رقبة الحمار، ارفعها فلا فائدة بها مرسلة

يرفع المخلاة، ويواصل طريقه، ولما أشرف على القرية ورأى البيوت زال عنه الهلع، وطفق يغني بأعلى صوته، ولما دخل الدار ورأته أمه، صكت وجهها وصاحت:

- من جليا، من جليا؟ كل هذه المسافة؟ وفي الليل؟
- يا ويلي، ماذا فعل بك والدك؟
- أبي يريد الجمل، ينقل عليه المحصول
- حسنا، سأطلبه من عمك خليل

كان أبو داوود قد باع الجمل السابق إثر حادثة فقد فيها أعصابه، وثارت ثائرته ضد الجمل، فعقله، وأوسعه ضربا، ويهرع إليه أخوه خليل

- توقف أرجوك
- ليس قبل أن أقتل هذا الجمل
- وماذا فعل حتى يستحق العقاب
- انظر، لقد حك الجمل ظهره في شجرة الزيتون هذه فقلعها، إنها أحسن الأشجار، وأجودهن ثمرا وزيتا
- يجب أن تبيع الجمل فورا، فهو حيوان حقود لا ينسى من آذاه، وسينتهز أول فرصة للانتقام
- نعم سأبيعه
- لا، بل أنا سأذهب به

يعود أحمد إلى جليا بجمل عمه خليل، وبمجرد أن يلمحه والده يستشيط غضبا، ويسحبه عن ظهر الجمل ويطرحه الأرض ويشرع في ضربه بالعصا

- ما جنيت يا أبي؟
- أين الشبكة؟ وماذا أفعل بالجمل دون الشبكة؟
- أي شبكة، لم تطلب مني شيئا كهذا

ولكن الشيخ يتوقف فجأة بعد أن شاهد الدم يسيل من فخذ الصبي، لقد جرحه السلك وهو يسحبه عن ظهر الجمل

[56] المخلاة: رقعة من الملابس تجعل وعاء للعلف، وتوضع في رقبة الدابة، فمنها يأكل، ويمنعها هذا ان تعيث في المحصول فتفسده
[57] العُرقان: العروق، وهي مجموعة من الكهوف على جانب الطريق

ينزوي الشيخ جانبا، ويندم على تسرعه ويبكي بصمت، فيما يشفق عليه ابنه، وهو يقول مشفقا على نفسه أيضا

- ومن أين لي أن أعلم بالشبكة، فلا والدي قال له، ولا أمي تنبهت لذلك، ولا عمي من بعدهم

شهر الأحزان

في عام 1945 يتوفى جده الحاج حسن، والد أمه عن مائة عام، ولم يبق من أجداده إلا أم أبيه، وبعد وفاة جده بخمسة أيام، توفيت أمه بعد معاناة مع المرض دامت ثلاث سنوات، بقيت نصف هذه المدة طريحة الفراش لا تستطيع قياما ولا جلوسا وكانت شقيقاتها يتناوبن على خدمتها ونظافتها، وبقيت على تلك الحالة حتى قبضها الله إليه

كانوا نياما ليلة صحوا على صراخ خالتهم رابعة، ولما حملوها على النعش وخرجوا بها من الدار أحس كأن قلبه قد انخلع من مكانه فتبعهم وصعد على سطح بيت قرب المقبرة وشاهدتهم وهم يهيلون التراب عليها وهو يبكي بحرقة

وبعد وفاة أمه طلبت الجدة من أبيه أن يدع الأولاد يبيتون عندها

- أنت رجل مشغول، تعود آخر النهار من العمل في الحقول، وهؤلاء صغار، وأخشى أن يتكشفوا، دعهم يبيتون عندي
- لا بأس

وأراد أعمامهم تزويج أبيهم وذكروا له أرملة من قرية (اذنبة) فرفض، ولما ألحوا عليه قال لهم:

- اسمعوا ما أقول: أنا رجل جاوزت السبعين من عمري، وتزوجت ثلاث نساء، ولم أرزق إلا بهذين الغلامين، هل تريدون أن أحضر لهم زوجة أب تهينهم وتؤذيهم؟
- وهل ستبقى بلا زوجة؟
- أعلم ما تريدون، الأرض، تريدون أن أبيع لكم الأرض، وأصرف مالي كله على زواج جديد، فلا يبقى لأولادي إرث، وأذرهم عالة يتكففون الناس، أو يعملوا أجراء عند أولادكم؟
والله لا يكون هذا أبدا

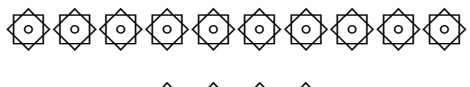

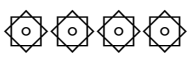

استمر أحمد يعمل عامل بناء في مشاريع إنشاء الطرق في شرق الأردن، وعاد مرات ومرات ليعمل في طرق معان – العقبة، وطريق عمان – المفرق، وكان يرجع إلى مخيم العروب بين الفينة والأخرى

وفي إحدى رجعاته يقابل عليا ابن عمه خليل، فيحدثه عن إعلان لتجنيد أفراد في سلك الشرطة

- سأتوجه الى قيادة الشرطة لتسجيل اسمي في سجل الراغبين
- متى؟
- غدا صباحا
- وأين يتم تسجيل الراغبين؟
- في قياده الشرطة بالخليل
- حسنا، أنا ذاهب معك

يتوجه الشابان إلى مركز قياده الشرطة ضمن مجموعة كبيرة من الشباب، وقاما بتسجيل اسميهما، فقادهما ذلك إلى الفحص البدني والطبي

كانت نتيجة الفحص إيجابية، فاستلم كل منهما كتابا إلى مدرسة الشرطة في منطقة العبدلي في عمان، فغادرا إليه، وبعد الفحص والإجراءات تمت الموافقة عليهما، وبهذا دخل الشابان في سلك الشرطة

وكانت البداية دورة تدريبية استمرت ثلاثة أشهر

في مرحلة التدريب يتزوج أخوه داوود، وبعد التدريب ينتظم أحمد في سلك الشرطة، ويتنقل في خدمته ما بين شرطة العاصمة، وشرطة الرصيفة، ومخفر مطار عمان المدني في ماركا، ثم استقر به الامر أخيرا في شرطة نابلس، وذلك قبل أن النكسة

يتزوج أحمد من زوجته الوحيدة (صفاء) والتي سيبقى بجوارها حتى آخر يوم في حياته، ويرزق بأولى بناته: سوسن، وفيما كانت زوجته حاملا بابنته الثانية، يصله خبر رحيل والده عن هذه الدنيا في العام 1946 ويشيع إلى مثواه يوم جمعة، بعد أن صلى عليه خلق كثير في الحرم الإبراهيمي

وفي عام 1966 يجري نقله للخدمة في مدينه نابلس، وهناك يولد له ابنه الأول "محمد وائل" وسيكنى بعدها (أبو وائل)

في نابلس: سيتعرف أبو وائل على البلدة بأحيائها القديمة والجديدة، وسيتعرف على الطرق الداخلة إلى نابلس والخارجة منها وسيكون مسؤول سيارة للنجدة تتحرك ليلا ونهارا في أزقه المدينة

إلى أن يأتي يوم الخامس من حزيران، أول يوم في حرب الأيام الستة

اليوم الأول/ الاثنين 1967/6/5

في صبيحة هذا اليوم يسمع الناس بالهجوم الإسرائيلي المباغت على مصر والدول العربية، وتنطلق الحناجر في الإذاعات العربية بالتهديد والوعيد، فاشتعلت آمال الناس بالنصر والوصول إلى يافا وحيفا قبل انقضاء النهار، وبخاصة مع عنتريات أحمد سعيد التي ذكر فيها أنهم أسقطوا عشرات الطائرات اليهودية

اليوم الثاني/ الثلاثاء 1967/6/6

يتلقى أبو وائل أمرا بفتح الطريق أمام سيارات الإمداد المتوجهة إلى مدينة قلقيلية عبر الطريق الذي يخترق نابلس من وسطها فيتحرك أبو وائل بحماس بالغ لفتح الطريق، ويصرخ في الناس، بل إنه كان يشتم من يتأخر

- افسح الطريق يا حيوان

وبعد فتح الطريق، يقف أبو وائل ينتظر قدوم هذه القافلة، فلما رآها أصيب بصدمة، وكأن أحدهم صب ماء باردا على رأسه، لقد كانت القافلة مكونة من ثلاث سيارات فقط، الأولى تجر مدفعا، والثانية فيها الوقود، والثالثة تحمل بعض الجنود

بعد الظهر بدأت الأخبار تتوالى عن انتصارات كاسحة لليهود، في تناقض واضح مع ما تبثه الإذاعات العربية

وفي المساء، وصله الخبر المؤكد أن مدينه جنين قد سقطت

اليوم الثالث/ الأربعاء 1967/5/7

الناس في حاله ارتباك وذهول، ولا يدري أحد ما هي حقيقة الموقف

يرد تعميم إلى مرتب الشرطة أن محافظ نابلس (أحمد الهنداوي) سيلقي محاضرة في قيادة شرطة نابلس، وهناك اجتمع خلق كثير

يتحدث المحافظ:

- يا شباب: لقد طلبنا غطاء عسكريا وإمدادات، لكنها لم تأت، فمن يستطيع منكم أن يؤمّن نفسه: فليفعل

يفهم أبو وائل مقصود الكلام بأنه رخصه للهرب، فيسرع إلى السائق إسماعيل

- هيا يا إسماعيل نتحرك نحو أريحا، نبيت الليلة فيها، فإذا ما سقطت نابلس، عبرنا النهر نحو شرقي الأردن
- كلا يا أبو وائل، هذه السيارة عهدة عندي
- ألم تسمع الأخبار
- لا شيء مؤكدا، ولن أغامر

ما العمل؟ والأحداث تتسارع والوقت ضيق جدا، يقرر أبو وائل أن يتحرك فورا لاستشارة بعض زملائه، وفي الطريق يقابله زميله حسن محمد القدومي

- إلى أين الوجهة يا حسن؟
- إلى جيوس، اليهود في مخيم عسكر؟
- اليهود في المخيم؟ إذا صاروا على أبواب نابلس؟ هل أنت متأكد يا حسن؟
- قطعا، أنا قادم من هناك
- هل هذا معناه أيضا أن الطريق الرئيسي بين عمان ونابلس صار مقطوعا؟
- بالتأكيد يا أبو وائل

يركض أبو وائل نحو السائق العزة ويطلعه على الخبر ويوبخه

- اليهود الآن في مخيم عسكر، ساعات وسيكونون في نابلس
- يا للهول، وماذا نفعل يا أبو وائل؟ ما رأيك أن نتوجه نحو طريق القدس؟
- وماذا لو اصطدمنا باليهود في منطقة اللُّبن؟
- معك حق، لا أعرف ماذا نفعل
- عندي الحل، نتوجه شرقا، باتجاه الساحة التي تدربنا فيها على الرماية
- لا توجد طريق إلى هناك

- يوجد طريق ترابية ضيقة تهبط إلى أريحا، وحيثما وقفت بنا السيارة عاجزة، نكمل المسير على الأقدام

أدرك السائق العزة أن الأمر صار منفلتا، والخطر صار وشيكا فيمضي معه في خطته

- على بركة الله
- بسرعة، اركب

وينطلق الرجلان إلى المكان المحدد، وفي طريقهما يصعد معهما آخرون من زملائهم، كان منهم زميله الملازم (عصام)

تحركت السيارة حتى تجاوزت قرية عقربا عن يمينهم، إلى أن انتهت الطريق المعبدة، وشرعوا في الطريق الترابية، شاهد أبو وائل طائرة على ارتفاع عال ثم شاهد جانبه رتلا من سيارات الجيش العربي فقال للسائق:

- هذه آليات الجيش منسحبة من المعركة، تعود إلى شرق النهر
- إنهم في نفس طريقنا
- هذا الرتل عرضة للقصف، ومن الخطر الشديد أن نكون قريبين منه
- وما العمل؟
- إما أن نسبقهم بكيلومتر، أو نتأخر عنهم بكيلومتر

كان الرتل بطيئا، فتجاوزوه، وأخيرا وصلوا إلى غور فصايل

- يوجد هنا معسكر للجيش العربي
- انظر، لقد تم تدميره، لقد تعرض للقصف أيضا

ينظر الملازم عصام إلى السماء فيشاهد طائرة حربية يهودية، فيصيح

- هناك، بالأعلى، طائرة مغيرة، ستقصف السيارة

يقفز عصام من السيارة مسرعا، لكنه يسقط أرضا

- آآآآه، يدي، يدي
- لقد كسرت يده
- هيا بنا نربطها بسرعة إلى رقبته، ونعاود التحرك، يجب أن نغذ السير، الوقت ينفد

تابعت السيارة الحركة حتى وصلوا أريحا

توجه الرجال إلى قيادة شرطة أريحا لشرب الماء، فوجدوا المخفر مهجورا، وليس به ماء، فأكملوا المسير حتى وصلوا أريحا وقد بلغ منهم العطش كل مبلغ، فلجأوا إلى أول مقهى صادفهم في الطريق فشربوا منه وارتووا، وهنا: تركهم السائق إسماعيل

- سأذهب لإحضار زوجتي من مخيم عقبة جبر
- هل ستعود يا إسماعيل
- طبعا

أقسم أبو وائل في نفسه أن إسماعيل لن يرجع، فلم يعتمد على ذلك

تفرق الذين كانوا في السيارة ولم يبق معه إلا الملازم عصام بسبب يده المكسورة، ثم تدافعا مع الفارين إلى شرقي النهر باحثين عن وسيله للنقل

كانت أرتال السيارات العسكرية المنسحبة من القدس والخليل تعد ولا تحصى، كان أغلبها من الجيش العراقي وبعضها للجيش الأردني، ولم يرغب أن يستوقف أيا منها للركوب، خوفا أن تقصفها الطائرات الإسرائيلية، وقد حصل ما توقعه حرفيا

لذا حرص أن يركب سيارة مدنية، فلما صادفك قلاب نحاتة (شاحنة رمل) أوقفه، وكان محملا عن آخره بالنازحين:

- أذاهب أنت إلى شرقي النهر
- نعم
- احملنا معك
- أنت ترى بأم عينك، الشاحنة ملأى عن آخرها، إذا وجدت لك متسعا، فافعل
- أنا سأتدبر أمري، المهم أن نجد مكانا مناسبا لهذا الضابط، يده مكسورة

تمكن أبو وائل من توفير موقف مناسب للضابط الكسير اليد، وتشبث هو مع الباقيين بهيكل الشاحنة حتى عبروا نهر الأردن

وهنا تقع الصدمة الهائلة

بمجرد عبورهم للجسر يسمع الجميع دوي انفجار هائل

لقد نسف الجسر

ينظر الكل نحو الدخان المتصاعد بذهول، كانوا على مبعدة دقائق فقط

تتهادى الشاحنة في منطقة غور نمرين القريبة من الجسر، ويشاهدون آثار القصف

بيوت مهدمة، وسيارات عسكرية قد طالها القصف وبداخلها جثث محترقة متفحمة لا زال الدخان ينبعث منها، والرائحة تزكم الأنوف، وجثث أخرى ملقاة على قارعة الطريق، وبقايا حرائق في المزارع قريبة عهد بالنار

استمرت الشاحنة صاعدة حتى وصلت مدينة عمان، وأفاض الناس كل إلى وجهته فيما نزل هو على تقاطع رأس العين- الوحدات، وأكمل طريقه إلى بيته في جبل النظيف مشيا على الأقدام

حتى هذه اللحظة كان متماسكا

ولكنه بمجرد دخوله البيت يلقي قفاه على الفراش ويغرس وجهه بين كفيه، وينفجر باكيا

انتهت العمليات العسكرية سريعا على الجبهات في حرب النكسة، والتي أقسم بعضهم أنها مجرد (مسافة السكة)، وهي أليق أن تدعى "النكبة الثانية" تلك التي قال فيها موشيه دايان:

- "إن ما حدث يفوق أكثر أحلامي جنونا"

لم يعد بمقدوره الذهاب إلى مخيم العروب ، وسيكون هذا النزوح الأخير ولن يرى فلسطين بعدها حتى آخر حياته

تدور الأيام سريعا وتشتعل الثورة الفلسطينية، وتقع معركة الكرامة التي أنزلت بالعدو خسارة فادحة مدوية أعادت الأمل إلى الشعوب، لكن الأحداث بعدها تتطور بشكل مؤسف وصولا إلى حرب أهلية بين الفصائل الفلسطينية المسلحة وبين الجيش الأردني ورغم أنه -علم الله- لم يكن من جناتها، ولا راضيا عن بعض ممارسات قام بها منتسبون للثورة، إلا أنه يقع ضحية الفوضى العارمة التي أعقبت المأساة

يسجن أبو وائل، وتنهى خدماته من الأمن العام، ويجرد من ألقابه العسكرية، ويحكم عليه بالإعدام مع آلاف آخرين، ثم يخفف الحكم إلى السجن المؤبد في سجن الجفر بأقصى الصحراء الأردنية، ثم يخرج في عفو ملكي عام بعد نحو ثلاث سنوات قضاها في سجنه بالجفر

خرج من السجن خالي الوفاض، ليس في يديه مال، ولا حرفة، ولا أفق

ولكن الحل يأتي من عند الله

كان للعشيرة في عمان جمعية استثمارية خيرية نشطة، وكانوا يقيمون مشروعا تجاريا لبيع المواد التموينية بالجملة في منطقة الوحدات، وسيختارون للعمل فيه أحمد محمود وابن عمه علي خليل، وسيقوم على تدريبهم خاله محمد حسن، وسيبقى في عمله هذا حتى يتقاعد منه وهو في أواسط السبعينيات من عمره ثم يأتيه أجله في العام 2020 الذي كان عام وباء الكورونا

يقف أحمد يوما في منطقة طبقة فحل من أعمال غور الأردن ينظر غربا مستذكرا قريته قائلا: "كل أمنيتي أن أعود وأدفن هناك"

وسينشد لاحقا

شـــــيخ يدب ويتكي بعصـــاه والعـجـز أنـهكـه وهـــدّ قـواه
ســـلبته أيدي النائبات نعيـــمه فَـقَـدَ الديـار وكـلَّ من يـهواه
هجر الجنان وفي حشـاه صـــبابة لنســـــــيم موطنه وطيب هواه
هجر الجنان وكان شـــخصا يافعا غض الإهاب ولما يحتفي بصباه
يـــا جـــنتي أنا مـــا تركتك طائعا رغـم العـــدو ومـــا يـكون أتاه
فلأنت من بين القـرايا كوكـب في الليلة الظلما يضيء ســـناه
هذا فتاك وقد أضر بجســـــمه طـول البعـاد وشـــر ما يـلقاه
سكن المغاور والكهوف مشردا يـرعى النجـــوم مرددا: "أواه"